

الضغوط النفسية في الحرب

الدكتور سعد العبيدي

الضغوط النفسية في الحرب.

د. سعد العبيدي

تاريخ الاصدار:

رقم التسجيل بالمكتبة الوطنية ١٦٧٥ لسنة ٢٠١٥

إصدارات مركز الشرق للبحوث والدراسات

ashraqcenter@yahoo.com

العراق: +964 14 228 677

موبايل: +964 7818 464 642

لندن: +44 20 7286 2802

موبايل: +44 7879 756 906

مطبعة دار القلم

بغداد - الوزيرية - خلف كلية الإدارة والاقتصاد

+964 771 060 7090

المدخل

يواجه المقاتل في خدمته العسكرية العادية ضغوطاً متعددة الأوجه، تحاول المؤسسة من خلال التدريب، وتمارين التحمل والممارسات التشبيهية، دفعه باتجاه التكيف لها أي تحمل أعبائها، ويواجه في ظروف القتال ضغوطاً أشد لابد من التعامل معها، بالمستوى الذي يمكنه من تحملها، وتقليل آثارها من أجل:

١. حماية جهازه النفسي، وإبقائه قادراً على التعامل مع المواقف القتالية بوعي وكفاءة.

٢. وقاية وحدته العسكرية كجماعة قتالية من الآثار السلبية التي تترتب على وجود الضغوط، وإبقائها في حالة تماسك، وتكافل قادرة على الأداء الجماعي باقتدار.

إجراءات الحماية

إن حماية المؤسسة أو الوحدة العسكرية من الضغوط النفسية للقتال، وتحصينها بالصد من احتمالات حصولها يتم في المعتاد من خلال جملة إجراءات أهمها:

١. زيادة قابليات التحمل النفسية، والعضوية للمقاتل منذ الأيام الاولى
للالتحاق الى الخدمة، واستمرار مده بالجرع اللازمة لابقاء القابليات،
بالمستوى القادر على التحمل.

٢. تعزيز القناعات الخاصة في داخله فرداً مقاتلاً، وجماعة مقاتلة
باهمية الحياة وقيمة المهام العسكرية التي تنفذ.

٣. تنمية المشاعر الوطنية، وربطها بالخدمة العسكرية، والواجبات
القتالية أثناء الحرب.

٤. العمل على تأمين الشؤون الادارية المناسبة، والقيادة والسيطرة
الفاعلة، التي تقلل من وقع الضغوط، وتساعد على دعم مستويات
التحمل.

في ظروف الحرب حيث التعرض الى التعب، واحتمالات الاصابة
والاستشهاد، يزداد الضغط النفسي على المقاتلين الى المستوى الذي قد
يكون عائقاً، يحول دون تأدية بعضهم المهام بالمستوى الذي يراد له،
تفوقاً على العدو في أثناء الهجوم أو قتالاً يكون فيه الصمود قائماً اتجاه
هجماته في حالة الدفاع، لهذا يسأل القادة والأميرين والجنود أنفسهم عن
الكيفية التي يستطيعون فيها وغيرهم من المقاتلين مواجهة ضغوط

الحرب البدنية والنفسية، وهو تساؤل مهم لا يشغل حيزاً هاماً من تفكير القيادة بكافة مستوياتها فحسب، بل وكذلك الضابط وضابط الصف والجندي، لأن الحرب بطبيعتها تنطوي على المخاطرة من جهة، وعلى الرغبة في توكيد الذات من الجهة الأخرى.

إن البحث عن إجابات مناسبة للتساؤل المذكور في أعلاه، يمر عبر العودة الى الضوابط والتقاليد والقيم والالتزامات العسكرية، فاختيار الأفراد المناسبين للمناصب والمهام المناسبة مهم.

واعتماد التنظيم الملائم حسب الامكانيات المتاحة، والمهام المطلوبة مهم أيضاً.

ومد المقاتل والوحدة بالتجهيزات الضرورية لتنفيذ الواجبات المطلوبة، والسلاح الملائم للتنفيذ كذلك مهم.

دون التقليل من أهمية التدريب، والتوجيه والدعم النفسي وحسن القيادة(١).

إنها سلسلة أعمال متكاملة، متتابعة، وأي خلل في احداها سيؤثر على الجوانب الأخرى، ويزيد من وقع الضغوط:

فتنسيب أمر الى الفصيل غير كفوء، وغير قادر أن يكون قدوة لفصيله، سيحد من فاعلية القيادة والسيطرة، ويزيد من القلق لدى

المنتسبين، وبالتالي يقلل من أثر عوامل التسليح والتجهيز وان كانت مثالية.

وتصرف الأمر المباشر باستغلال أحد جنوده سيفتح المجال الى مجموعة ضغوط أن تنفذ الى عقول المنتسبين، وبالتالي أصبح هو مصدر ضغط بدلا من أن يكون هو قاعدة تبديد الضغوط عنهم، ودعم معنوياتهم، في ظروف قد يكونوا فيها الأحوج الى المعنويات.

الفصل الأول

الضغوط النفسية

ماهية الضغوط النفسية

يواجه الانسان في حياته الاعتيادية بشكل عام، والعسكري في المعارك التي يخوضها، والخدمة التي يؤديها على وجه الخصوص، مواقف ضاغطة، أو مشاكل وصعوبات تضعه في ظرف غير أعتيادي "ضاغط"، يشكل له تهديداً شديداً، ومباشراً لحياته، يمكن أن يسبب للبعض توتراً شديداً.

إن الضغط النفسي، هو استجابة جسم الانسان للدفاع بالضد من مثير طارئ أو حالة طارئة، يفسره تهديد، يدفعه في الغالب الى التجنب(٢)، ففي الحياة العامة يفسر الانسان قدوم سيارة باتجاهه تهديداً، يشكل ضغطاً، يستجيب اليه في الحالات الطبيعية بالتنحي جانباً، أما اذا كان الانسان في هذا الموقف ضعيفاً، خائفاً، مرتبكاً في الأصل فقد تكون استجابته مرتبكة، باهتة أو فاترة، كأن يبقى في مكانه حتى قدوم السيارة لتدهسه من دون أن يحرك ساكناً أو يخرج من المكان مذعوراً، وفي المعركة يجري الأمر بنفس السياق، فعندما تتقدم جماعة ارهابية من نقطة سيطرة، سيفسر عقل الحارس أو المجموعة الموجودة في النقطة هذا

التقدم خطراً، يستجيبون اليه دفاعاً بعدة اتجاهات تبعاً لخصائصهم وتدريبهم وانضباطهم ومشاعرهم الوطنية:

فقد يقبل البعض البقاء في النقطة، يدافعون عنها على الرغم من أن تفسيرهم للخطر حداً يصل حدود الموت باحتمالات عالية، لأن الارهابي القادم انتحاري أو ان السيارة القادمة مفخخة "وهذا هو السلوك العسكري الأصولي الذي تم التدريب عليه".

وقد يتك بعضهم النقطة، ويهربون بعدة اتجاهات " سلوك غير سليم ناتج عن التعرض الصدمي".

وآخر من بينهم يجري سريعاً الى الرشاشة، ليستخدمها سبيلاً الى التعامل مع الموقف وهكذا^١.

^١ في القتال الذي يجري مع الارهاب، قام رجال عسكريون في مواقع القتال بتفسير الخطر موتاً محتوماً، وبدلاً من الهروب من الموقف بدافع الغريزة قاموا باحتضان الارهابي الانتحاري المفخخ والموت معه، عمل بطولي أنقذ العسكري بموته عشرات من الأبرياء، وهناك حالات على النقيض من هذا، اذ يتغاضى آخر عن سيارة تمر في نقطة السيطرة التي يحرسها عند اكتشاف كونها مفخخة ليتفادى انفجارها عليه أو قتله من قبل سائقها، ويسكت عن مرورها لتنفجر في مكان آخر انفجاراً يؤدي بحياة العشرات من زملاء في نفس الوحدة أو الوحدات الأخرى.

ان المشكلة الاساسية الضارة في الضغوط هي الاستمرار في وجودها، اذ أن الجسم الانساني واذا ما استمر في حالة الدفاع لفترة زمنية طويلة، كما هو جار في بعض المعارك أثناء الحروب، سينهك الجسم، وكأنه يستنزف قدراته الدفاعية وطاقته النفسية، فيصاب بأعراض جسمية مثل ارتفاع ضغط الدم، السكري...الخ.

أو نفسية مثل اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية، القلق، الاكتئاب، الاضطرابات النفسجسمية...الخ".

ان في الحروب، واثناء المعارك كما في الحياة المدنية، باتت الضغوط النفسية تحتل مكانة بارزة في ادبيات وبحوث علم النفس والطب النفسي، وباتت في أعلى القائمة الموضوعة لمسببات الاضطرابات العضوية والنفسية في العصر الحالي.

أما الأسباب التي تكون وراء الضغوط، وسبل الاستجابة لها بطرق مختلفة "مرضا أو تجنباً أو مواجهة...الخ" فانها تختلف من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى، إذ أن المشكلة ليست في خطورة المواقف القتالية الفعلية بقدر ما هي موجودة في:

١. التفسير الآتي من هذا المقاتل أو ذاك لمقدار الخطورة الافتراضي.

٢. الاستعداد النفسي لهذا المقاتل أو ذاك بتقبل حصول هذا الخطر، أو رفضه بقوة.

٣. مقدار الطاقة النفسية المتاحة للتعامل معه.

وبضوء هذا نجد، وفي مواقف التعامل مع ارهابي أنتحاري وصل المكان أو الموضع العسكري:

أن الجندي (س) حضن الارهابي، وقبل الموت معه حماية للآخرين.
الجندي (ص) هرب وتركه في المكان حتى حصول الانفجار، ومات من شدة العصف مع العشرات أو المئات الموجودين في القرب منه.
الجندي الثالث، بادر من نفسه بتصويب بندقيته سريعاً، ليردي الارهابي قتيلاً قبل التفجير.

ان الاختلاف في الاستجابة للمواقف الضاغطة، مسألة انسانية يختلف فيها الواحد عن الآخر، لكن القتال في المعارك لا يعتمد الفردية، ولا ردود الفعل الاستجابية التقديرية، انه أداء جماعي أي سلوك يشترك فيه جميع أفراد الجماعة "الوحدة /الوحدة الفرعية" على وفق ضوابط يتم التدريب عليها منذ السلم، ويجري تكرار التدريب والممارسة حتى يصل أفراد المجموعة الى مستوى من الأداء المتقارب جماعياً، وباستجابات متقاربة يفترض أن تتم دون الحاجة الى التفكير كثيراً في مجالها أو

استنزاف الطاقة النفسية لتنفيذها، وفي التدريب كلما بلغ أداء المنتسبين الى هذا المستوى الأقرب الى الاستجابة الآلية يكون الأداء الجماعي صحيحاً ومفيداً، ويكون عموم المنتسبين بعيدون عن الاصابة بالاضطرابات النفسية التي يسببها الموقف الضاغط (٣) باحتمالات أكثر.

الافرازات الهرمونية أثناء التعرض الى

الضغوط

في المواقف القتالية الخطرة، والمفاجئة "الضاغطة"، يفرز الجسم هرمون الادرينالين كوسيلة يستخدمها لتكوين الاستجابة العضوية والنفسية للتعامل مع الخطر، حيث يؤدي من جانبه الى رفع ضربات القلب بالقدر الكافي لتسريع ضخ الدم في الشرايين التي تتوسع هي أيضاً لاستيعاب الدم الآتي، وبما يفي بتزويد العضلات والخلايا بمزيد من الاوكسجين، يساعدها على تكوين رد الفعل السريع، والمناسب للتعامل مع الخطر الماثل في الموقف القتالي.

هذا وعندما يتعرض الجسم الانساني الى موقف خطير أو مفاجئ يحدث ضغطاً على مركز محدد في المخ، هذا المركز معني بالتفريق بين حالتين هما الجهد والاسترخاء، عندها أي وبعد تحديد الحالة، يرسل اشارة كيميائية الى الغدة الكظرية لافراز الادرينالين بغية تحفيز الجسم لاتخاذ الاجراء المناسب أي الاستجابة، وكذلك المخ لتجميع المعلومات بقدر أكثر وزيادة طاقة الجسم عن المعتاد عضوياً.

ان افراز الأدرينالين يرفع ضغط الدم، ويزيد معدل ضربات القلب، وبما يسمح بسحب كمية من الدماء من مناطق معينة في المخ والأعضاء الداخلية ويضخها في العضلات، وكنتيجة لسريان الأدرينالين في الدم تزيد سرعة، وقوة الجسم كما يقل معدل الإحساس بالألم، وكل ما يحدث في الجسم من تغيرات فيزيائية تجعل الجسم مؤهل الى واحد من خيارين هما:

القتال بشدة والصمود في المكان بقوة.

أو الهروب بوقع سريع. (٤).

إن الضغوط الشديدة التي يتعرض لها البعض من المقاتلين بسبب الخوف ونقص الخبرة للتعامل مع الموقف القتالي الضاغط، يحصل فيه أن تستثير أي الضغوط الغدة النخامية لإفراز هرمونها المحرض على إفراز كل من الأدرينالين والنور أدرينالين، الذي يؤدي إفرازهما في الدم إلى تغيرات فسيولوجية وكيميائية حيوية كبيرة، إنها تهيئ الجسم لامتلاك قوة كبيرة، استجابة لإشارة التهديد الصادرة من مراكز محددة في المخ معنية بهذا الشأن، وتقوم أيضا غدة "الأدرينال" بإفراز هرمونات القشرة مثل هرمون "الكورتيزون"؛ لإعداد الجسم بيولوجيا للدفاع عن الإرهاق النفسي بأشكاله المختلفة.

لذا وبضوء هذه الافرازات العضوية، يفترض أن يواجه المقاتل الموقف الضاغط بدنيا ونفسياً، لكن المشكلة تكمن عندما تقل أو تنعدم الخبرة القتالية، وعندما تكون الشخصية ضعيفة، وطاقاتها النفسية مستنزفة، فسيكون أثر تلك الهرمونات دفعاً باتجاه الهروب، وليس ثباتاً ومواجهة الموقف بشجاعة. وهنا تكمن الخطورة في التطورات السلبية للمعركة، اذ يجد البعض من هؤلاء الضعفاء أن لديهم الطاقة البدنية والقوة العضلية ليفعلوا شيئاً لكنهم غير قادرين أن يفعلوه بالصد من عدوهم، لتجاوز الموقف الضاغط، عندها يديرون وجوههم الى الخلف، وقد يهربون، ويحصل أحياناً أن يكون بعضهم شرسين عدائين في طريق هروبهم، ولدى بعضهم الآخر استعداد نفسي لأن يعتدون على من يقف في طريق هروبهم أو حتى يقتلون من يعتقدون أنه بات يشكل عائقاً أمام تحقيق رغبتهم في الهروب التي أستنفرت كل أجهزة الجسم لتحقيقها.

الفصل الثاني

ضغوط الاجهاد القتالي

معنى الاجهاد

يعبر الاجهاد القتالي عن حالة الخمول العام في نشاط العسكري الموجود في موقف يؤدي فيه مهام قتالية، بينها الاشتباك بالعدو هجوما او دفاعاً، وبينها ما يتعلق بالقتالات الخاصة ومكافحة الارهاب، مثل الرصد والتفتيش والحراسة والمداهمة والمتابعة، وغيرها مهام أخرى في ظروف محددة "ضاغطة" تشكل ضغوطاً بدنية أو نفسية يشعر بوجودها المقاتل أحياناً أن لا رغبة لديه في الاستمرار بالقتال وأكثر من هذا قد يجد نفسه في أحيان أخرى عاجز عن تأدية ابسط المهام القتالية التي اعتاد تأديتها في الظروف الاخرى.

ان العوامل التي تتعب الجندي حد الوهن في المعركة كثيرة ومتنوعة. فإذا لم يتناول الطعام بانتظام فستتأثر لياقته البدنية، ويكون غير قادر على حمل السلاح كما يجب، وقد يتأخر في القفز من مكانه الى مكان آخر يتطلبه الموقف القتالي.

وإذا لم يأخذ قسطاً كافياً من النوم فأن قواه على التركيز سوف تضعف، ومداركة للأشياء التي تحصل في محيطه ستتسوه، عندها قد

يضخم من وقع الأشياء وربما من أعداد العدو، أو يقلل من كم وحجم وجودها.

وإذا ما شُتم أو عُوقب تجنياً، وإذا ما أجبر على دفع جزء من راتبه تبرعاً أو رشوة، فأنها تشكل على نفسه ضغوطا سيكره بسببها الأمر والوحدة بل والعسكرية ذاتها وربما تدفعه الى عدم القتال عنها بالشكل الصحيح، وربما الهروب منها.

انها حقائق وهناك أخرى كثيرة لن يدركها الجندي إلا بالتدريج، وقد لا يدرك الضابط أو الأمر مديات تأثيرها كضغط على العقل المقاتل الا بعد تلمسه التدهور في الأداء، ولأنه السبب في تكوين هذه الضغوط أو جزء منها سيضع نفسه في منزلة التغاضي ولا يحملها المسؤولية، وقد يلقي التبعات على غيره كآلية نفسية دفاعية، وعندها سوف تواجه الوحدة سيلا من الضغوط التي تسبب الاجهاد حد الوهن، حالة يجد فيها المقاتل أنه غير قادر على التنفيذ أو يتكاسل من التنفيذ، وتجد فيها الوحدة أنها غير قادرة على تنفيذ المهمة التي اعتادت تنفيذها بكفاءة في الظروف الأخرى.

أنواع الاجهاد

ان جل التعريفات التي تناولت الاجهاد القتالي، ركزت على جوانب الكسل والخمول العام في النشاط القتالي (٥).

وعلى هذا الاساس العلمي صنف علماء النفس العسكري، والقادة العسكريين والباحثين في مجال الأداء الاجهاد ووضعه تحت عنوانين رئيسيين هما:

١. الاجهاد البدني.

التعب العضوي، الذي يحول دون القدرة على تنفيذ المهام القتالية المطلوبة بالشكل المطلوب، وان كانت تلك المهام ضمن القدرة البدنية الطبيعية للمقاتل.

٢. الاجهاد النفسي.

الكسل والخمول، وبطئ الاستجابة، وضعف المبادرة التي تفضي الى عدم الرغبة وضعف القدرة على الانجاز، وأحيانا أو في الظروف الضاغطة بشدة، التوجه الى الهروب أو التسرب من الموقف الذي يتطلب التنفيذ أو تجنبه بوسائل عدة بينها التمارض.

علاقة الضغوط بالاجهاد

ان المهم في موضوع الاجهاد هي علاقته في تكوين الضغوط النفسية وتحسسها، وأكثر أنواعها تأثيراً تلك التي تتعلق بتقدير الخطر، فالقتال بطبيعته تهديد للحياة يشعر المقاتل بوجود الخطر، والخطر في ظروف الحرب أو حتى خارج ساحاتها يمكن أن يكون حقيقياً، يتعامل معه المقاتل حسب السياقات التي تدرب عليها، ويمكن أن يكون خيالياً أو مغالى بحصوله عندما يكون المقاتل مجهداً من الناحية النفسية. والمشكلة هنا في التقدير، فالمجهد قد يقدر الخطر بشكل غير صحيح، وغالباً ما يكون تقدير قيمة الخطر بمستوى يفوق الحقيقة، كما هو الحال بالنسبة الى الانسان العطشان عندما يرى سراًباً، يقدر وجوده ماءً وهو غير موجود في الأصل، فالمجهد قد يحس تقدم عجلة باتجاه موضعه أو نقطة السيطرة التي يحرسها سيارة مفخخة، ويتصرف على اساسها، وقد يقدر ثلاث ارهابين يتوجهون نحو مكانه مجموعة كبيرة، وقد يزيد من غلو التقدير في القدرة بحيث يجره الاجهاد بتكوين أفكار بأنهم الأقوى

والأقدر وهكذا يقدر المجهد تقديرا خاطئا، ومن بعده يتصرف تصرفا كذلك يكون خاطئا.

ان تقدير الخطر ليس جميعه ضارا ويتسبب في حصول الاجهاد، اذ أن القليل منه مفيد لزيادة النشاط الايجابي المطلوب للرد على مصدر الخطر، والتعامل معه بالقدر الذي يؤمن النجاة دون التفريط بتنفيذ المهمة.

مما ورد يتبين وجود علاقة بين مصدر الخطر والاجهاد "تقدير الخطر" ورد الفعل أو الاستجابة الخاصة بالتعامل مع الخطر، وهنا يمكن القول أن طبيعة القتال تقتضي أن تكون ردة الفعل "الاستجابة" الخاصة بالمقاتلين أسرع وأدق وهي ستكون كذلك ويمكن جعلها كذلك سريعة ودقيقة في الحالات الآتية:

١. اذا ما سبق للمنتسبين أن مروا بتجربة تهديد مماثلة وان كانت صناعية أي تمت صياغتها في مواقف تدريبية قريبة من الواقع.
٢. عند التعرض الفعلي لمواقف تهديد حقيقية مسبقة في المعركة، وتم التعامل معها بشكل ناجح، أي إدارة موضوعها من قبل الآمرين بشكل صحيح.

٣. يكون المقاتل الممارس أقدر من غيره من المقاتلين المستجدين في سرعة ودقة ردة الفعل للخطر الموجود في الموقف القتالي عند تساوي عوامل التأثير النفسية الأخرى مع غيره من المقاتلين.

وهنا تجدر الإشارة الى أن ادراك الخطر يقترب من الواقع، أي لا يشكل ضغطاً كبيراً عندما تتوفر لدى المقاتلين معلومات صحيحة عن الموقف التعبوي أي قوة العدو الفعلية، وطبيعته، ونظام معركته، ونوع الأسلحة المستخدمة من قبل جنوده، ومديات تأثيرها الحقيقية، لذا فإن استخدام السلاح الكيماوي عديم الرائحة على سبيل المثال قد يتسبب في تكوين استجابة بطيئة لا تتناسب ومقادير تأثيره الحقيقي، بسبب نقص المعرفة التي دفعت الى عدم الشعور بالخطر كما هي الحقيقة.

تقدير الخطر

ان الاجهاد يمكن أن يؤثر على قوى الحواس التي تحدد بطبيعتها نوع السلوك المطلوب للتعامل مع الخطر، وغالبا ما تكون ردود أفعال المقاتلين تحت وطأة الاجهاد بطريقة غير مناسبة، فالمثال السابق عن العطش الذي أخل بالادراك الحسي البصري، ينطبق تماما على ظروف المعركة والاجهاد في ساحتها، فالمجهد نفسياً يقدر الخطر الموجود في محيطه باتجاهين:

١. التقليل.

التقليل من قيمة الخطر الموجود، أي يقدره بأقل من مقداره الفعلي، وهذه حالة وان تمثل الأقل في الواقع القتالي، فانها تتسبب في أن يتردد المقاتل في الاستجابة، وقد يكون بطيئا لا يتحرك، وبالتالي يعرض حياته وحياة زملائه من باقي المنتسبين الى الخطر الفعلي، ويعرض مهمتهم العسكرية دفاعاً أو هجوماً الى الفشل، عندها يكون قد أسهم في خسارة أو تعقيدات في الموقف تشكل ضغطا صامداً على العموم.

٢. التهويل.

على العكس من الأول، أي تضخيم الخطر بالمستوى الذي يفوق الحقيقة بكثير، وهو تقدير خاطئ تفوق أخطاره التقدير الخاطئ المذكور في أعلاه، لأنه وفي حال عدم امتلاك المقاتل الطاقة النفسية الكافية والمعنويات العالية، قد يجد نفسه، وبسبب المغالاة في تقدير الخطر أنه يواجه خطر الموت حتما عندها يشكل له هذا التهديد صدمة "ضغط" تدفعه الى تجنب هذا الخطر، وذلك بالانسحاب أو حتى الهروب من ساحة المعركة، وفي بعض الأحيان الاصابة باحد أنواع الاضطرابات النفسية.

ان المغالاة في التقدير يمكن أن تشتت التركيز الحسي، فالراصد يصبح عاجزاً على تحديد اتجاهات الرمي نحو موضعه، والمخابر قد يحاول الاتصال ويكرر المحاولة عدة مرات ليؤكد الفشل، قبل أن يكتشف بنفسه أو بمساعدة زميله القريب منه، أنه لم يفتح الجهاز بالأصل.

كما ان الاجهاد والتقدير الخاطئ للخطر قد يسببان في أحيان ليست قليلة قدر من القلق داخل نفوس المقاتلين، عندها يجد الواحد منهم أنه بحاجة الى التحرك في مكانه لأن القلق لا يتفتت في مثل هكذا حالات إلا بالنشاط البدني وحده(٦)، وهو مع وجود بعض الاستثناءات عن هذه

القاعدة النفسية، فان القلق على هذه الشاكلة يزيد من تعريض المقاتلين الى الخطر الفعلي اذ أن التحرك في موضع قتالي أو أثناء تنفيذ مهمة كمين قد تعرض المقاتلين الى الكشف من قبل العدو، وبالتالي تزيد نسبة نجاح العدو في استهدافهم.

وبهذا الشأن وفي حالة وجود المقاتل القلق في موقف قتالي يصعب التحرك فيه أو انه موجود بحكم الضرورة القتالية داخل عجلة قتال مدرعة أو في قمرة القيادة لطائرة مقاتلة، وان تحر كه في محيطها صعب، فسيصاب بالاجهاد النفسي في كثير من الأحيان. على هذا يرى الآمرون أن بعض من جنودهم يتقافزون من هنا ومن هناك، قد يركضون بهذا الاتجاه أو ذاك دون أن يعون أو يدركون الدوافع الاساسية لتحركهم أو انها تعود في الأصل الى كم القلق الموجود في نفوسهم.

دور الأمرين

ان معرفة هذه الحقيقة مهم بالنسبة الى الأمرين، والتعامل معها بشكل دقيق من قبلهم مهم أيضا اذ ان المقاتل وفي الوقت الذي يحتاج الى البقاء في مكانه راصداً أو مدافعاً أو رامياً وبأقل ما يمكن من الحركة لتجنب انكشافه من قبل العدو أو لتجنب تشتيت تركيزه في الرمي، فانه قد يواجه قلقا يدفعه الى التحرك القسري لتبديده، وهنا يأتي دور الأمر المباشر أو حتى الزملاء في التدخل السريع لتبديد القلق بطرق أخرى غير الحركة:

فالتقدم من المقاتل والبقاء الى جنبه عند الرمي الدفاعي بالضد من قوة مهاجمة للعدو يوفر قدر من الطمأنة وتبديد القلق. وتشجيع المقاتل القلق على الكلام قد يكون كافياً للايفاء بالمطلوب وهكذا.

ان الخطر في موضوع التحرك القائم على كم القلق، عندما تصل شدته الى المستوى الذي تصبح فيه الرغبة بالحركة من القوة، بحيث تضطره إلى ترك ملجأه أو مكانه بالرغم من كل الموانع التي تدعوه لعدم

القيام بذلك، عندها يمكن التأكيد أن مثل هؤلاء يسارعون الى حتفهم بتأثير قلقهم الآتي من تقديرهم الخاطئ للخطر في محيط ساحتهم القتالية.

وأخيراً لتلافي الاجهاد أو الإعياء قبل الآوان فأن الحاجة تدعو إلى:

١. تدخل الأمرين المباشرين في الوقت المناسب، أي قبل أن يفقد المقاتل السيطرة على أجهزته الحركية والحسية ويتصرف بطريقة تسهم في تكوين ضغط على الآخرين.

٢. الاستعانة بالزملاء القريبين للمعاونة عندما تكون حالات القلق فردية.

٣. عدم التهاون أو التراخي في التعامل مع أولى الحالات التي تظهر قلقاً على بعض المقاتلين، لتكوين ردع نفسي يحول دون أنتشار القلق بين الباقين عن طريق العدوى النفسية، مما يكون ضغطاً صدمياً.

قدرة الاحتمال

يختلف المقاتلون بعضهم عن البعض فيما يتعلق بتركيبتهم النفسية وتكوينهم العضوي "البدني" وعلى اساس هذه التركيبة نرى البعض ثابتاً في الموقف القتالي، والبعض الآخر مهزوماً، ونرى الواحد من بين المجموعة جريئاً في تنفيذ المهمة المكلف بها وفي اتخاذ القرار الخاص بها، وآخر من نفس الحضية متردداً لا يقوى على إبداء الرأي، ونرى البعض قادرين على تحمل ضغوط القتال وأعباء الخدمة العسكرية والبعض الآخر واهنين بشك واضح، على هذا فان جزء من القدرة الخاصة بالتحمل تعود الى الفرد أي الى خصائصه النفسية والعضوية، ومع هذا فان القدرة التي يحتاجها المقاتل لأداء مهامه، لا تترك على غارب الأمر، فانها في المجال العسكري تنمى الى الحدود التي تساعد أصحابها الى التنفيذ الصحيح، وإلى الثبات بالقدر الكافي، هذا وان التنمية تتأسس على عمودين رئيسيين هما.

١. التدريب.

ان تكرار الحركات "التسديد، الرمي، القفزات، حمل الجريح...الخ" والمواقف التعبوية "الاسناد، الاختباء الهجوم، الدفاع....الخ" خلال التدريب يكسب المنتسبين خلال المعركة عادة تأديتها بالشكل القريب من حدود تأديتها سابقاً، بالإضافة الى أن التكرار أثناء التدريب الذي يصل الى مستوى الاعتياد يكسب المقاتلين "المتدربين" الثقة بتأديتها في المواقف القتالية الفعلية، اذ أن من يستطيع القفز من على مانع، بكامل تجهيزاته العسكرية أثناء التدريب الاجمالي على سبيل المثال، سيكون واثق من قدرته على القفز من على نفس العلو في الموقف القتالي الحقيقي.

٢. التوجيه والدعم النفسي.

يحتاج المقاتل جندياً أو ضابطاً الى استمرار عملية الاشادة والتوجيه والتعزيز والشعور بالفخر التي تأتي من عمليات معنوية دائمة تسبق المعركة وأثنائها ومن بعدها، عملية تستهدف المشاعر والأفكار التي تساعد على ابقائها قريبة من الواقع، تتعامل مع الظروف المحيطة بشكل واقعي.

هناك أمثلة في تاريخ الحروب تؤكد أهمية التوجيه والدعم النفسي والحاجة اليه، ففي الحرب العراقية الايرانية مثلاً خسر الجيش مواقعه في معركة الفاو الأولى عام ١٩٨٤ بسبب نقص المعنويات، وعدم قدرة الأجهزة المعنية بالمعنويات على ترميمها في وقت الهجوم الإيراني.

كذلك خسر الجيش العراقي عام ٢٠١٤ الموصل في معركة غير متكافئة مع قوى الارهاب نفسياً، وعدم امكانية القادة والأمين والجهة المعنية من اقناع المنتسبين الذين يدافعون عن الموصل بالصمود والدفاع عن المدينة التي تعد الثانية من حيث السكان في العراق.

كذلك شهدت مسارح العمليات في الحرب العالمية الثانية أمثلة مشابهة سلباً أو ايجاباً اذ أن القوات المدافعة في كاليه قد أصيبت باجهاد نفسي شديد "ضغوط" بعد أربعة أيام من القتال المتواصل تسبب في انهيار الدفاعات، في حين صمدت القوات السوفيتية المدافعة عن ستالينغراد وقاومت الدعاية المركزة لعدوهم الألماني لخمس أشهر قتال متواصلة بفعل الدعم والتوجيه المعنوي الفاعل.

كذلك قاتل المظليون الألمان بتصميم حتى بعد ٢٢٠ يوماً من قتال متواصل في الحرب المذكورة، وفيها أيضاً دافعت الفرقة الرابعة والثلاثين

الأمريكية عن مواقعها بعزم راسخ بحيث أن كثيراً من جنودها كان لابد من حملهم بنقلات عندما يتم إعفاءهم أو استبدالهم.

انه سلوك متميز يعود الى العامل المعنوي، والاستعداد النفسي المسبق للتعامل مع الواقع بأسلوب يقلل من كونه ضغطاً. اذ أن عدم الاحتمال لأربعة أيام قتال، واحتماله باقتدار لمدة ٢٢٠ يوماً، والقدرة على العودة مشياً بعد معركة طويلة أو العجز عن التحرك في المكان خلال معركة قصيرة يعود الى عامل الاجهاد والضغط النفسي، وقدرة الآمرين ورجال التوجيه المعنوي على التعامل مع حيثياته.

تذبذب الأداء القتالي

أن وقع المعركة، وطبيعة الأداء القتالي في جميع الحروب تؤثر أنه أي الأداء القتالي قد يكون جيداً "إيجابياً" مرة، وقد يكون ضعيفاً "سلبياً" مرة أخرى بالنسبة الى الأشخاص ذاتهم والمجموعات "الوحدات" وهذا تناقض يقتضي المزيد من الدراسات للتفريق بين العوامل التي تؤدي الى حصول الاجهاد والتعرض الى الضغوط الصدمية، خاصة وان غالبية الدراسات الأكاديمية تناولت التحمل في المجالات غير العسكرية بسبب طابع السرية، وجرى تحليل بعض أنواع السلوك التي أشارت الى أن عمال مناجم حُبسوا لعدة أيام تحت الأرض، وبقوا قادرين على الأداء والتفكير بفاعلية، ومستكشفين للقطب حُوصروا بين الثلوج وتصرفوا بحكمة، وبحارة علقوا بين حطام سفنهم وتحملوا الضغوط، ومتسلقي جبال ضلوا الطريق واستمروا في الحياة بوعي جيد، وجنود عملوا خلف خطوط عدوهم لأشهر وقد تحكموا بأجسامهم، وبمخرجات سلوكهم وبما يفوق الحدود الإنسانية، لكن هذا قياس لا يمكن تعميمه بشكل كامل على

الحياة العسكرية، لأن الأمر في القتال بالنسبة الى العسكري ينطوي على أكثر من مجرد البقاء كقدرة بدنية أو نفسية على التحمل، انه محتاج أن: يشارك بقتال نشط يتفوق فيه على عدوه.

يحافظ على حياته وحياة زملاءه في الحاضرة والفصيل والسرية وكذلك في الوحدة وعلى موقعه.

يبقى قادراً على ادراك المتغيرات التي تحصل من حوله، بوعي يمكنه من التعامل معها تعاملأً صحيحاً.

ومع هذا فان الدراسات في هذا الجانب قدمت بعض الأجوبة المفيدة في هذا الشأن، بينها:

١. في مواقف القتال هناك من سيقاتلون بتأثير غريزة البقاء، وقد يذهبون مثل هؤلاء إلى حد القول أحياناً أنهم لم يعودوا يكثرثون بشأن بقائهم على قيد الحياة، لكنهم في لا وعيهم نجدهم يتشبثون بأية قشة من أجل البقاء، حتى ولو كان الآخرون القريبون منهم قد تخلوا عن هذا التشبث.

٢. يصعب عملياً في ظل حالات القتال أو حتى في الظروف الاعتيادية، تمييز هؤلاء المقاتلين القادرين على التحمل عن أولئك الذين يتصفون بضعف السيطرة على ارادتهم.

٣. ان هؤلاء الأشخاص يمتلكون فعلاً أو يطورون بإراداتهم غير الواعية قدرة على العيش، إيماناً عميقاً بأنهم ليسوا وحدهم في الموقف القتالي الضاغط.

٤. يحاول المنتسبون في الموقف القتالي على الأغلب المحافظة على علاقة ودية مع بعضهم البعض، وكأنهم يحاولون بتوجههم هذا توزيع ضغوط القتال النفسية فيما بينهم.

٥. يتجه البعض الى السخرية تخفيفاً للضغط (٧).

ان تلك الأجوبة تعد جزئية، ولكن ليس بالإمكان إعطاء جواب قاطع في موضوع القدرات الانسانية على التحمل ودفع مؤثرات الضغوط جانباً، والذي يمكن تأكيده هو ان لدى الناس قدرة على تحمل معاناة الحياة وضغوطها بشكل يفوق التصور، إذ إنهم وان يستهلكون جزءا كبيرا من طاقتهم النفسية بعد بضع ساعات من التعرض الى الضغوط الشديدة، ومع ذلك فبوسعهم أي الناس مواصلة العيش في ظل ظروف سيئة باستمرار لأيام أو أسابيع أو حتى أشهر بافتراض استخدام الاحتياطي من الطاقة.

النوم ومسألة الاعياء

للنوم ساعات كافية مهم لتعويض التعب الحاصل، ولتجاوز بعض حالات الاجهاد خاصة البدني منه، اذ ان المقاتلين يتشكون في المعتاد من التعب أو العطش أو الجوع أو الضوضاء أو الحر أو البرد. وفي كتب التاريخ وخبرة الجيوش اثناء المعارك تلميحات عديدة الى هذا الشأن، معاناة بعض منها أسهم في حصول انهيارات نفسية، وبعضها كون تحد نفسي للعدو أسهم في التفوق عليه، فمثلاً تشكى الجنود الألمان في ستالينغراد وفي ذروة القتال من أن تفوقهم الجوي قد انتهى وانهم في وضع صعب ومع هذا أستمروا في القتال بأداء جيد^١.

^١. في الحرب يحصل أن يتأخر الغذاء عن مواعده، ويحصل أن يتوقف الامداد ببعض التجهيزات حتى الضرورية للقتال، ويحصل أن يكون هناك قصور في الدعم والاسناد الناري، حالات تؤثر الخبرات أنها تحصل لعموم الجيوش، وعلى الرغم من حصولها فان تأثيراتها على نتائج القتال مختلفة، فهناك من يتحمل ضغوطها ويستمر في القتال مستفيدا من حصولها، لتكوين التحدي النفسي للعدو، وهناك من يأخذ منها حجة

ان السوفييت في ستالينغراد استغلوا مسألة النوم في تكوين ضغوط على أعدائهم الأمان وزيادة شدتها، اذ أنهم اتجهوا الى تكثيف قصفهم المدفعي ليلا مما تسبب في حدوث مصاعب في نوم المقاتلين الألمان، زادت من شدة الضغوط النفسية على أحوالهم.

وهنا تجدر الاشارة أن المقاتلين المستجدين يجدون صعوبات في التكيف أي النوم في حالات القصف الشديد، لكن القدامى الذين عاشوا خبرات قتالية كافية، يكون بمقدور غالبيتهم النوم بقدر مقبول تحت القصف، وان كان نوماً غير كافياً لاشباع حاجة النوم الكافي لتجاوز التعب والاعياء.

إن السهر وقلة النوم يؤثر على التركيز وسرعة رد الفعل، وفي حالات الحرمان الشديدة يتشكل ضغطاً، يمكن أن يصيب البعض من المقاتلين بالهلوس السمعية أو البصرية، فقد يعتقد الراصد الذي لم ينم لوقت

للانسحاب أو حتى الهروب من المعركة، خاصة وان المقاتل وفي حالات ضعف روحه المعنوية يتجه الى التأسيس على بعض أوجه القصور، وان كان اضطراريا لتبرير فعل الخطأ المرتكب مثل الانسحاب أو التسرب. من هذا يكون التقصير وان كان في أساسه مادي الى أن التعامل معه، ونتائجه ذات تأثير معنوي على المنتسبين، وقد يكون له اثر كبير في تحديد نتائجها.

طويل نسبياً أن هناك في الافق القريب اشخاص للعدو يتنقلون أو يتقدمون، وقد يتوهم الرابضون في مواضعهم الدفاعية لأكثر من يوم، أنهم يسمعون خطى عدوهم يتقدم ليلاً، وهو غير موجود فعلاً. أن الدراسات الخاصة بالنوم تؤكد أن حرمان المرء من النوم المتواصل لمدة اربع وعشرون ساعة، يؤدي الى هبوط الكفاءة القتالية بقدر ملحوظ، أما حرمانه لثمان وأربعون ساعة ستكون كفاءته محدودة جداً، وتنتهي تماماً بعد إثنان وسبعون ساعة، ومن بعد هذا تظهر الهلاوس واضحة على السلوك^١.

على هذا يكون من المفيد أن يعطى المقاتل وقتاً ولو محدوداً لاقتناص فترة نوم، وأخذ قسط من الراحة وان لساعات قليلة خلال الأربع والعشرين ساعة. فرص سيكون لها تأثير على نتائج الأداء القتالي

^١. يختلف المقاتلون فيما بينهم من حيث القدرة العامة على تحمل ضغوط عدم النوم، فقد تنتهي الكفاءة عند البعض بعد أربع وعشرون ساعة، وآخرين العكس يمكن أن يستمروا فاعلين أكثر من الأوقات المذكور، وعموما يجري الحساب على اساس المتوسطات، وعلى المعنيين بوضع الخطط والأمين ورجال التوجيه المعنوي أخذ الحقائق المذكورة عن النوم والسهر بنظر الاعتبار(٨).

وعلى نتائج المعركة. فإذا أعطيت المجموعة مجرد أربع ساعات للنوم كل ٢٤ ساعة مثلاً، فأنها يمكن أن تظل قادرة على الأداء المناسب للمعركة لفترة أطول قد تستمر ما بين "٩-١٤ يوماً" ولو ان كفاءتها ستتقلص بالتدريج، علماً أن أربع ساعات نوم في اليوم تمثل الوقت المناسب المتاح لمتوسط المقاتلين في الميدان، مع الأخذ بالاعتبار الحالات الطرفية احصائياً اذ أن البعض قد لا يكتفي بثمان ساعات وآخرين في المقابل قد يكتفون بساعة واحدة. علماً أن البعض من الجيوش في حروبها الحديثة وخاصة في أثناء القتالات الخاصة، تتجه الى تزويد جنودها بالمنشطات "الامفيتامينات" التي تساعدهم على مقاومة النعاس والتقليل من ضغوطها، ومع هذا فان التجارب على هذه المنشطات اثبتت أنها لا تلغي الحاجة الى النوم نهائياً، بل تؤجله الى فترة لا حقة، اذ أن مثل هؤلاء المقاتلين، وبعد أن ينهون مهامهم التي تتطلب اليقظة لعدة أيام بالاستعانة بالمنشطات، يكونون بحاجة الى النوم لفترة أطول كتعويض لساعات النوم المؤجلة.

ان الدراسات المتعلقة بالحرمان من النوم، اشارت على أن المرء يضع نصب عينيه دوماً ان المجموعات التي تدرس تنام في الظروف الاعتيادية ما بين ٧-٨ ساعات في كل ٢٤ ساعة. كما أن ذلك يكون في فترات منتظمة

طبقاً لإيقاعات الجسم، وأي اختلاف عن هذا النمط يؤدي إلى هبوط الكفاءة كما أنه من المهم ان ندرك ان قدرة الجسم على احتمال قلة النوم لا يمكن ان تتحسن لمجرد التدريب، والتدريب والتعلم هنا يفيد في التخفيف من الآثار السلبية للحرمان من النوم بإجراءات تنظيمية.

إن احتمال البقاء في سهر متواصل ما بين يومين إلى ثلاثة أيام تقريباً مع البقاء بوضع فاعل أمر ممكن، والبقاء لمدة (٩-١٤) يوماً مع نوم لمدة ٤ ساعات كل ٢٤ ساعة كذلك ممكن. لكن الكفاءة في كلا الحالات تتناقص تدريجياً لتنتهي عند الصفر في نهاية المطاف. ومع هذا فان السهر أثناء الموقف القتالي بحد ذاته لم يكن هو العامل المجرّد أي الوحيد أو الحاسم في انتاج الضغوط والتأثر بها، فهناك مصاحبات له تزيد من فاعليته في التأثير أثناء القتال، مثل ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها، الاجهاد، كثر الاصابات، أسلوب التعامل، وغيرها عوامل تتدخل مع السهر، عندها يمكن القول أن السهر بدأ ضاغطاً، وان المقاتل بحاجة ملحة لمزيد من ساعات النوم.

التغذية وعوامل الاجهاد

بالإضافة الى الحاجة الى النوم، هناك حاجة الى تناول الغذاء، فالجوع عامل آخر وكذلك العطش، وهي من بين الأمور التي يشكو منها المقاتلين، وهي مهمة بالفعل إذ أن الجندي في ظل اجهاد القتال يحتاج، كما هو حال المحموم (المصاب بحمى) سوائل أكثر من الشخص الذي لا يخضع لأي اجهاد. ونظراً للمتغيرات المتعددة في هذا المجال، ليس ممكناً إعطاء أرقام، لكن علينا ان نقبل حقيقة ان المشروبات من غير الماء يجب ان توزع على الأقل مرة كل يوم.

انه من المعروف ان الإنسان يمكن أن يظل على قيد الحياة لبعض الوقت دون طعام، ومع هذا فإن إلغاء وجبة طعام واحدة معتادة يمكن أن يضر بالقدرة على التركيز، ويمكن أن يقلل من الطاقة البدنية. وفي حالات الشد والأرتباك الذي يسود بعض أشكال القتال يحتاج المقاتلون الى تناول الطعام حتى أكثر من المألوف، وأي تقصير في تأمينه يزيد من التشكي الذي يقلل من المعنويات، ويدفع البعض من المتشككين الى تبرير بعض أنواع السلوك غير المتوافقة والقيم العسكرية، أي أن البعض من

المقاتلين الذين يتكون مواضعهم الدفاعية قد يبررون أو يتحجبون بالجوع، وكذلك الحال أثناء الصفحات الأخرى للقتال.

وعموماً إذا لم يكن بالوسع أمداد الطعام ولو بكميات مخفضة فأن كفاءة الجندي سوف تتراجع بسرعة وسيصبح كسولاً فاطر الهمة، عندها لا يمكن توقع جهود بدنية أكبر كتلك التي تدعو الحاجة لها إثناء القتال الهجومي بعد ذلك، ولو أنه قد يظل قادراً على القيام بالدفاع الثابت المستكن بنسبة تفوق أدائه في الهجوم.

ان الإجهاد يعجل بانهاك الوظائف الجسدية الهامة للبقاء، وقلة الطعام والشراب تعجل من حصول الاعياء وتسهم في تشويه الادراك الذي يقرب أحيانا من التعرض الى الضغوط، حقيقة لابد من ايلائها الأهمية وهناك في التاريخ العسكري أمثلة كثيرة عن تأثيراتها:

١. في ستالينغراد ابان الحرب العالمية الثانية، سمح النقيب "موينخ" للمتمردين في وحدته بالنوم والأكل وتناول السوائل، وفي أعقاب ذلك لم يجد صعوبة في إقناعهم بمواصلة القتال الذي كان قاسياً.

٢. في "كاسينو" اعترف اللواء "باد" بأهمية أمدادات الطعام الجيدة والمنتظمة وقام هو بنفسه وهو قائد فرقة بتنظيم ذلك مباشرة،

واشار الى التغير الملموس في أداء منتسبيه بعد تأمين تلك الامدادات^١.

٣. يتذكر اللواء "اوستر" الذي عمل برتبة رائد في جبهة "كاسينو" النجاح الذي حققه اللواء "باد" بمطابقة الميدانية في المحافظة على تماسك فرقته التي كانت قد بدأت بالتراجع تدريجياً تحت نيران

^١ . معركة من معارك الحرب العالمية الثانية بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء، حدثت ما بين الشهر الأول من عام ١٩٤٤ الى الشهر الخامس من نفس العام في جبل "كاسينو" جنوب العاصمة الايطالية، روما، وتحديدا في المنطقة المسماة "تشوتشاريا"، وكانت من أشرس المعارك التي شارك فيها الحلفاء، اذ حاولت جيوشهم ولعدة اشهر من الشتاء والربيع من اختراق خط "غوستاف" لكن الدفاعات الألمانية كانت قوية وارادة القتال عالية جداً حالت دون ذلك، وقد تمكن الألمان في البداية من احتواء طليعة قوات الحلفاء خلف خط "غوستاف" عند "أنزيو"، ومع هذا فالتفوق الجوي وادامة الزخم القتالي أنهت المعركة لصالح قوات الحلفاء.

الألمان، ونوه إلى أن اللواء "باد" قد جمع جنوده على بعد ثلاث كيلو
مترات إلى الخلف من خط النار الرئيس حول عدة مطابخ ميدانية،
وقدم لهم الطعام والشراب بعد أن حدد لهم المواقع في الضاحية
البعيدة نسبيا عن تأثيرات القصف المعادي، وسمح لهم بالراحة.
وبعد ما يقرب من ساعتين كان بوسعه اعادتهم إلى خط النار، وإلى
مواقعهم القديمة التي كانوا قد فروا منها قبل ساعات، دون
استخدام أي إكراه.

إن تلبية الاحتياجات الإنسانية العضوية الأساسية من نوم وطعام
مهم جدا ولا تقل أهميته عن طبيعة القرار التعبوي الصحيح وعن توفير
مستلزمات النجاح المادية والنفسية في المعركة، مثل الأسلحة والمعدات.

الأمل

أن الرواية المتعلقة باللواء باد لن تكون كاملة دون أن يذكر وإياها إجراءً من إجراءاته العديدة غير التقليدية. إجراء اتخذه يتعلق بتكوين حالة أمل بين المنتسبين ليجاوز بها حالة اليأس والجزع وانخفاض مستوى المعنويات والضغط النفسية التي تسببها، مستندا على حقيقة كون الأمل يلعب دوراً حاسماً في تقوية القدرة على الاحتمال، حسب الأدبيات التي تناولت موضوع التحمل عند الجنود، اذ بوسع الواحد منهم أن يواصل القتال فترة أطول، ويحتمل بقدر أكبر عندما يعرف قرب أنتهاء مهمته بنجاح، وكذلك إذا ما كان يعرف أن نهاية المعركة تلوح في الأفق وان الاهداف يمكن أن تتحقق.

لقد فهم اللواء "باد" هذا جيداً فأصر على ضرورة وجود تخطيط ثابت طويل الأمد للإجازة والاستبدال الذي لن يتغير إلا في الحالات القصوى، وعلى اساسه بات كل منتسب من منتسبي فرقته عارفا بتاريخ أستبداله واجازته، فتكون في داخله هدف ممكن التحقق أي أمل قابل للحصول.

انه مبدأ طبقته القوات الأمريكية في فيتنام على جنودها الذين كانوا يستبدلون سنوياً، والجيش العراقي في تاريخ حروبه الطويلة لجأ الى هذا المبدأ من خلال الاجازات الدورية التي حددها في المتوسط بحدود إحدى وعشرين يوماً تواجد للضباط، مقابل أسبوع إجازة، وبحدود ثمان وعشرون يوماً لتواجد المراتب في لقاء اسبوع اجازة، لكن المشكلة بالنسبة للجيش العراقي سهولة خرق المبدأ وقلة الالتزام بالتحديدات الواجب الالتزام بها، الأمر الذي يتسبب في اطفاء وافول الأمل في النفوس وحدوث النقيض أي الاحباط، فكانت الاجازات آنذاك تتوقف مع كل حالة حيطة وحذر تأتي من الجهات العليا^١. وتمتد الثلاث اسابيع المحددة فترة أمل

^١. من بين المآخذ المعروفة على الادارة الأمنية المعنية للجيش العراقي أثناء الحرب كثر اللجوء الى الحيطة والحذر من قبل القيادات العليا، كنوع من التنبيه للتيقظ وجدية التعامل مع التهديدات المعادية، وبسبب ضعف الالتزام وكثر الخروق وعدم تحمل المسؤولية، باتت تلك القيادات تعطي الأوامر بالحيطة والحذر لأبسط الأسباب، وتعطيها أحيانا ضمن ما يعرف بحسابات اسقاط الفروض، والقاء تبعة المسؤولية على المستويات القيادية الدنيا وعلى المنتسبين، لكن هذه الاجراءات ومن كثر تكرارها قل الالتزام بها على مستوى التنفيذ من ناحية، وتسببت في زيادة شدة الضغوط على النفس من ناحية أخرى.

للمتتع بالاجازة، لتصل في بعض الحالات الحرجة الى ثلاثة أشهر، كافية لموت الأمل بكل معانيه النفسية.

ان وجود الأمل عند المقاتلين يقلل من شدة الضغوط التي تفضي الى الإصابات النفسية. إذ أن الانسان بشكل عام اذا ما فقد الأمل يكون بنسب غير قليلة ميالا الى الانتحار. وقد كان هذا الفقدان أحد البواعث الحاسمة وراء العدد الكبير من حالات الانتحار بين الجنود في الحروب بينها الحرب العراقية الايرانية التي شهدت حالات إيذاء نفس وانتحار ملموسة. غير أن اليأس هذا يمكن أن يكون له تأثيراً عكسياً، وخاصة بالنسبة لتلك الأقطاب القليلة من الأشخاص.

لكن الفقدان التام للأمل أي اليأس لا يفضي في جميع الحالات، وعند جميع المقاتلين الى الميل للانتحار، حيث تشير بعض الدراسات الى أن البعض من المقاتلين يجدون أنفسهم قد حولوا اليأس الى إرادة متزايدة على القتال إلى حد التعصب، بالتأسيس على مفهوم أنهم ميتين حتماً أو أنه لا يوجد شيء يمكن خسارته، على هذا يتجهون لمهاجمة العدو بضراوة.

إنها نقطة تحول نفسي حرجة يمكن أن يتدخل في حالتها الآمرون المباثرون، بتبديد اليأس وذلك من خلال المساعدة في اعطاء بصيص أمل

يبقى منتسبيهم في حالة اتزان أو باتجاه دفعهم لمقاتلة العدو بضراوة. غير أن التحول هذا ليس سهلاً واستثنائي، لأن المقاتل وحتى الإنسان عندما يكون في الوضع اليأس تكون طاقته النفسية مستنزفة "ضعيفة" بسبب كثرة التعب وشدة الضغوط، ولذلك يمكن أن تكون القلة تمتلك القدرة على الانتقال من اليأس الاكتنابي إلى التحدي الانفعالي، وبذل الجهد البدني الكافي لتنفيذ هكذا نوع من القتال (٩).

وبهذا الصدد لخص أحد أمري الفصائل الذي قاتل في معارك الفاو عام ١٩٨٤ أبان الحرب العراقية الإيرانية مبيناً أنه، وخلال الأيام الأولى للمعركة شعر بالتوتر، وأحس التعب والعطش والحاجة إلى عمل شيء ما صحيح، إحساس جعل من الصعب عليه التفكير بالشكل الواضح الصحيح.

إن القدرة على تحمل ضغوط المعركة، والإرادة النفسية على التحمل هي في الواقع كبيرة في داخل نفوس المقاتلين وأكبر مما هو متوقع. لكن السهر والافتقار للشراب والطعام، وعوامل الصخب الخاص بالمعركة،

والحر والبرد والخوف، تسهم جميعها في تقليل تلك القدرة على التحمل خلال ساعات قليلة في بعض الاحيان^١.

^١ . تؤكد خبرة القتال أن المقاتل يمكن أن يتحمل الضغوط الفعل الخطر أو المتعب عندما يكون لديه أمل أو معرفة بانتهائه. علما أن الأمل أو حتى بعض أشكال الايمان وان كانت وهما فانها تساعد على تحمل ضغوط يصعب تحملها في حال عدم وجودها.

الفصل الثالث

الضغوط النفسية على المقاتل

التعرض الى الضغوط

في الحرب يكون كل مواطن من مواطني الدولة اللاتقيين، بدنيا مشروع استدعاء للمشاركة بها على وفق نظم وقوانين معلومة، أي أن كل فرد على وجه التقريب ملزم بأداء الخدمة العسكرية، وكل فرد من هؤلاء الملزمين يمكن أن يخدم في الخطوط الأمامية للجبهة القتالية، وفي الحرب الطويلة على وجه الخصوص، قد لا يحصل الجندي المستدعى الى الخدمة أو المكلف بفرصة تدريب كافية للانتقال من الحياة المدنية العادية الى الحياة العسكرية المنضبطة.

من الحياة الآمنة الى الحياة الخطرة الضاغطة.

عندها يكون التواجد في خطوط القتال، وخاصة الخطوط الأمامية في الدفاع ورجال الصولة في الهجوم ضاغطا على النفوس، ومع هذا هم يقررون بأدائهم نتيجة الحرب.

انه تواجد قال عنه "مارشال" في الانزال الخاص بالحلفاء في نورماندي بتاريخ ٦ حزيران ١٩٤٤ أن أولئك الذين تقدموا الصولة وحققوا موطن قدم قد اسسوا لنجاح الحلفاء، وحددوا مصير جيوش

بأكملها، لكن بعض قواعد الحرب قد غيرتها التكنولوجيا المتقدمة والدمار الهائل للأسلحة غير التقليدية، وعلى هذا أثار البعض من المتابعين سؤالاً بل مجموعة أسئلة بينها:

هل تبقى الأهمية ذاتها لجنود الخطوط الأمامية في تقرير مصير القتال؟.

هل بقيت الضغوط ذاتها على أولئك الجنود خاصة المستجدين منهم؟.

وهنا تأتي الإجابة من خلال طبيعة الحرب، التي لم تتغير باعتبارها صراع قوة يحاول كل طرف من أطرافها إخضاع الخصم لارادته وفرض شروطه باستخدام القوة بينها القتل، على هذا بقي المقاتل في الميدان يواجه ضغوط الإصابة بعاهة أو الموت، من هذا يمكن القول أن الإصابة في المعركة والموت خلالها باقيا كما هما والاختلاف الحاصل بين الماضي والحاضر يتعلق بشكل السلاح وقدرته الهائلة على الاماتة.

ويمكن القول أيضاً أن التقدم الحاصل في التكنولوجيا العسكرية زاد من شدة الخطر، وبالتالي زيد من مشاعر العيش تحت الضغوط النفسية للخطر، والضغوط الحاصلة على المقاتلين يمكن أن تفضي الى كثير من الاصابات النفسية، بينها وأكثرها شيوعاً هو القلق.

إن الضغوط النفسية في الحرب، تأتي من الاعتقاد باحتمالات الإصابة والموت، على هذا يسأل القادة العسكريون كيف يمكن للمقاتل أن يتحمل مثل هذه الضغوط؟

إن الإجابة المناسبة لهذا التساؤل الحيوي تأتي من خلال فهم مشاعر القلق التي تساور المقاتل أثناء تواجده في مواضعه أو تأديته لمهام القتال.

القلق

القلق هو خوف مجهول المصدر (١٠) يعاني منه جميع الناس بينهم المقاتلين في مواقف الحياة المختلفة، والاختلاف الوحيد فيما بينهم هو بمقدار تحسس وقعه في الزمان والمكان المحددين، وان كانت الظروف المكونة له مماثلة.

فهجوم ارهابيين على فصيل يتخذ من مجموعة بيوت دفاعات له حالة، لو وضعنا لها مقياساً مادياً على سبيل الافتراض نجد أن الهجوم فعل يمثل مثير بوقع واحد أو مستوى واحد لنفترض له شدة تساوي (٧٠)، لكن هذا المثير بهذه الشدة الافتراضية يثير قلقاً في داخل هذا المقاتل تختلف شدته عن زميله الآخر في الحضيرة نفسها، وتختلف كذلك عن عريف الفصيل وأمره، ولو تتاح الفرصة أن تقاس شدة القلق في موقف الهجوم هذا لمجموع منتسبي الفصيل، سيتبين أن كل منتسب من منتسبي الفصيل يحصل على رقم من مقياس الشدة قد يختلف عن زملائه الآخرين، وهذا يرجع لعدد من الأسباب بينها أو أهمها:

١. الخصائص الشخصية للمقاتلين أنفسهم.

٢. التدريب الفني والتحملي المسبق.
 ٣. التحصين والاستعداد النفسي المكتسب.
 ٤. طبيعة التعامل من قبل الأمرين المباشرين.
 ٥. اسلوب القيادة والسيطرة.
 ٦. أهداف الحرب والعملية القتالية ومقادير الأمل في تحقيقها.
- على هذا وبضوء هذه الاسباب الرئيسية وغيرها، لابد من الاعتراف بحقيقة أو جملة حقائق هي:
- حقائق عن القلق القتالي
١. أن كل العسكريين المشاركين في القتال يمكن أن يعانون قدرا من القلق.
 ٢. ان شدة القلق الموجود في الموقف الذي يعيشه المنتسبون في التشكيل، يختلف التحسس بها "التأثر بها" من واحد الى آخر.
 ٣. ان البعض من المنتسبين تحت وطأة القلق الشديد "الضغط" يودون تجنب المواجهة بالهرب، لكن القلة هم الذين يفعلونها في واقع الحال.

٤. ان الكثير من الجنود المتمرسين يساورهم الشعور بنوع من الخوف الخفيف عندما تصلهم أوامر القتال، ومنهم الذين يخوضون معارك عدة، يتساءلون إلى متى نظل محظوظين بالنجاة؟.. تساؤل ليس هو الوحيد الذي يراود المقاتلين ويقلقهم، إذ أن عوامل القلق في الموقف القتالي من حولهم، ومديات المجهول التي تحيط بهم، والمواقف غير المتوقعة التي تواجههم، والرغبة في معرفة المصير الذي ينتظرهم، قد تدفعهم إلى ترديد سيل من التساؤلات بينها:

- أ. ما هو المطلوب مني في المهمة التالية؟.
- ب. هل سأنجح؟.
- ج. هل سأقتل أم سأصاب بعاهة؟.
- د. أين هو العدو؟.
- هـ. أين أقرب زميل أو صديق لي؟.
- و. أين أمري؟.
- ي. هل سأفقد كل أو بعض من زملائي؟.
- ك. كيف سيعاملني العدو إذا ما أسرت؟. هل سيقتلني؟. هل سيمثل بجثتي؟ وهل سيعذبني ببطئ حتى الموت؟.

هذا وكلما طال الوقت الذي يواجه فيه المقاتل أو مجموعة المقاتلين أنفسهم أثناء المعركة وخلال التهيؤ والاستعداد لخوضها، يمثل هذه الأسئلة العديدة والمتكررة، كلما زادت الضغوط النفسية المسلطة عليه، وكلما برزت أسئلة أخرى جديدة، تحتاج الى أجوبة، وهكذا يستمر المسلسل الذي يعد ضاغطاً في جميع الأحوال.

لكن المعرفة المعقولة بالموقف ووضوح المهمة ضروريان للتخفيف من القلق الموقفي، اذ وعندما يكون لدى المقاتل المعني هدف واضح، يصبح وجوده ضمن المهمة أقل قلقاً من عدم الوضوح الذي يسبب التيه، وبالتالي يكون من السهل تحمل القلق المثار في هذا الموقف وبآثار نفسية قليلة أيضاً.

تأثيرات القلق

إن هذا النوع من القلق، وفي حالاته الشديدة تقدم بعض الجيوش الغربية للتعامل معه أنواع من العقاقير أو حتى الكحول في بعض الحالات^١. وثبت في القتال الدائر بين القوات العراقية المسلحة وبين قوى الارهاب في وقتنا الراهن أن داعش ومن قبلها القاعدة تعطي أفرادها خاصة الانتحاريين منهم بعض أنواع العقاقير المهلوسة لتسهيل تحملهم القلق، وقبول نتائج المهام التي من بينها الموت.

إن العقاقير وغيرها تعد حلول ترقيعية لموضوع القلق، وانها والكحول وان تخفف من شدة القلق، لكنها بدرجة تعد هامشية ومؤقتة، لذا يبقى الحل الوحيد في هذا الشأن هو أن يعيش المقاتل مع قلقه ويتعلم كيف يواجهه.

^١. لقد كان السوفيت يقدمون الكحول لجنودهم قبل بعض الهجمات الشديدة أثناء الحرب العالمية الثانية، ومع هذا فإن الكحول يخفف القلق مؤقتاً فقط، لكن الاكثار منه يقلل في الوقت ذاته القدرة على التصرف بطريقة رشيدة ومنسقة.

من خلال ما تقدم نستطيع ان نصل إلى أمرين هامين، هما:

١. يصبح القلق "الخوف من المجهول وغير المتوقع" مؤثراً بشكل تدريجي، وبما يؤدي إلى حصول رغبة في الفرار.

٢. هناك نمطين أساسيين من المقاتلين، يختلفان عن بعضهما البعض سلوكياً في حال العيش تحت وطأة القلق:

أ. المقاتل الذي يستخدم سلاحه ويقدم على المبادرة.

ب. الآخر الذي يبقى سلبياً وكأنه عابر طريق.

إن الدراسات التي تناولت موضوع القلق في مواقف القتال والنمطين المذكورين من المقاتلين في الموقف المقلق، لاحظت الآتي:

١. أن من معدل مائة مقاتل خلال الاشتباك بالعدو، هناك حوالي ما بين (١٥-٢٠%) فقط يشاركون بأسلحتهم في القتال بفاعلية.

٢. إن الرقم المذكور، (١٥-٢٠) لا يتغير مع خلال الخبرة المتراكمة، أي إن نفس الجنود دوماً هم الذين يقاتلون بفاعلية.

إنها ملاحظة تدعو الى التأمل، يرى في مجالها المختصون أن الضرورة تقتضي إحداث تغيير في نهج التدريب والتأهيل النفسي وبما يساعد على

جعل أولئك المقاتلين الذين عرفوا بقلّة المبادرة، مقاتلين فعالين مثل أقرانهم الخمسة عشر أو قريبين منهم على أقل تقدير.

إن مثل هكذا دراسات أكدت أن السلوك القلق وقلّة الفاعلية في القتال، سلوك يتعلق جزء منه بالجوانب الجينية الموروثة، والجزء الآخر ذا صلة بالتعليم والتدريب والتأهيل النفسي الذي يساعد على اكتساب المهارات القتالية والثقة بالنفس، وهنا تقتضي الإشارة إلى أن الجوانب الوراثية لا يمكن تغييرها، واكتساب بعض جوانب الشخصية "خوفاً أو تحدياً" حيث تكون الشخصية اكتملت جوانبها في الوقت الذي يكون الشباب قد تم استدعائهم إلى الخدمة العسكرية، أو تطعوا إليها، لذلك يصبح من غير الممكن إحداث تغييرات أساسية في هذا الجانب، ويبقى من الأفضل التركيز على التدريب وعلى دمج الجنود غير القلقين وغير النشطين في مفارز أو حضائر تكلف بداية بمهام لا تعود لنقاط ضعفهم أية تأثيرات فيها، وهذه مشكلة تقع ضمن مجال الاختيار الدقيق للأفراد. وأكدت أيضاً أن الفاعلين أي نسبة الـ (١٥-٢٠%) من مجموع المائة المذكورة يكون من المفيد استخدامهم في القتالات الخاصة، ويمكن أن يشكلوا المعين الذي تستمد منه الأمة قاداتها في المستقبل.

ان النسبة المذكورة تؤكد أنه وفي الحرب الحديثة لابد وأن تعتمد
الجيش على الاختيار الدقيق للأفراد وتنسيبهم الى الوحدات والمهام تبعاً
لخصائصهم.

الفصل الرابع

الضغوط التي يتعرض لها القادة والأميرين

القرار

ان من ملاحظة ردود الأفعال الإنسانية العامة للمؤثرات البيئية، التي تترك دوماً أثرها على الانسان، أي كان وفي أي مكان يكون، والاخذ بالاعتبار عدد من نقاط الضعف، والقوة المحتملة في تكوينه البنائي، والتي يمكن أن تشمل القائد/الآمر باعتباره انسان، يحمل مثل غيره بعض الخصائص التي تنتقل اليه عن طريق الوراثة جينياً أو يكتسب بعضها الآخر من خلال عمليات التربية والتعلم، على أساسها يمكن القول ان وجود الخصائص وطبيعتها يؤثر على القرارات التي يتخذها القائد/الآمر في مواقف يكون فيها التصور المنطقي هو الأساس في اتخاذ القرار.

هناك مثال في هذا الجانب، يتضح من خلال تناول إحدى ردود الأفعال الإنسانية، على وفق التصور المنطقي، على أن اتخاذ القرار بضوء المظهر يتسبب في عدم منطقية القرار، وكما يأتي:

إذا ما شاهد المرء رجلاً ضعيفاً مكسواً بشكل صحيح، وبقامة متوسطة، وسؤل أن يحزر استناداً الى المظهر مهنة هذا الرجل، فيما اذا كانت أمين مكتبة أم مزارع، فمن البديهي أن نحصل على اجابة أنه أمين

مكتبة، لكن هذا القرار ليس قراراً منطقياً نظراً لأن عدد المزارعين الموجودين هو أكثر من أمناء المكتبات بآلاف المرات، وعلى هذا فاحتمال أن يكون الرجل الضعيف المكسو بشكل صحيح، ومتوسط القامة أميناً لمكتبة هو احتمال ضعيف، والخيار المنطقي ان يكون مزارعاً.

وبالتأسيس على هذا المثال يكون الإنسان بحكم الطبيعة غير قادر على التفكير في الظروف الاعتيادية بمقاييس الإحصاءات، لكن بعد التدريب الطويل سيكون بوسعه تحسين تصوره بالنسبة للأرقام، ويصبح قادراً على القرار بشكل منطقي.

وثمة رد فعل هام آخر يتعلق بعملية صنع القرار، فمن الملاحظ أن الرغبة بالود والصداقة والعطف والاهتمام الخاص، والاحترام والقوة هي أقوى الدوافع لدى الإنسان في التأثير على انتاج القرارات إلى حد بعيد وبصورة أساسية، اذ أنه وبشكل لا شعوري لا يفعل أحياناً ما هو عقلائي أو منطقي أو ضروري، بل تقوده أحياناً بعض الرغبات والتطلعات والميول، لأن يفعل شيئاً وان كان غير عقلانياً، والمثال التالي يوضح هذه الحقيقة.

في نهاية ستينات القرن الماضي تحطمت طائرة أثناء التحليق في طريقها من طوكيو إلى هونغ كونغ قرب جبل "فوجياما" هذا الجبل

المقدس في اليابان، الذي تغمره الغيوم في العادة طوال السنة، غير أن العواصف الشديدة تبدد هذه الغيوم أحياناً، عندها يمكن رؤية الجبل بهيبته المعهودة، لكنه يصبح خطراً بشكل خاص بالنسبة للطائرات التي تمر قريباً، بسبب الريح الشديدة التي يمكن أن تفقد الطائرة توازنها إذا الصلة بالريح، كل هذا كان معروفاً لطيار هذه الطائرة التي تحطمت بضوء القرار على أساس الرغبة الشخصية، إذ أنه ترك خط الطيران المرسوم على وفق خطة الطيران، المفروض أن يتقيد به، وسلك طريقاً آخر، راغباً في أن يسمح لركابه بإلقاء نظرة قريبة على هذا الجبل، أراد بدوافع شخصية أن يقدم لهم خدمة، يكسب بواسطتها مرضاتهم، واعترفهم بقدراته في الطيران، لكنه وبسبب هذا التصرف الشخصي مات هو وجميع ركابه.

إنها خبرة مثلها الكثير لو اتاحت دراستها سيجد الدارس آلاف التقارير عن حوادث الطرق للعطل الأسبوعية، فيها دلائل يشير نصف حالاتها على الأقل إلى أن السواق قد أقدموا على مجازفات ما كانوا ليقدموا عليها في لحظة عقلانية.

إن القيادة التي ترتبط بنتائج قراراتها بالعقلنة من عدمها كما ورد في المثل أعلاه، ترتبط أيضاً بالرغبة في عدم التراجع عن القرار حالما يتخذ، إذ

قليل جداً هم الذين يتراجعون عن قراراتهم، لأن ذلك يعرض سمعة صاحب القرار للضرر، وبالتالي أصبح كل واحد يسعى الى تأكيد قرار اتخذه لا شعورياً، كذلك يكتتم، ولأطول ما يمكن أية معلومات جديدة تناقض قراره السابق.

ان صياغة واتخاذ القرار في السياسة صعب، واتخاذها في المجال العسكري ابان الحرب أصعب، لأنه لا يتعلق بسمعة القائد متخذ القرار الذي قد يتهم بالضعف عند الرجوع، والتخلي عن قرار اتخذه فيما سبق، بل بالنتائج التي يكون بعضها كارثيا، فالقرار بانسحاب القطعات في الحرب عام ٢٠٠٣ الى داخل المدن، بينها بغداد والدفاع عنها من الداخل، تسبب في سرعة سقوط جميعها بوقت قياسي، فالقرار هنا كان خاطئ، والعدول عنه في ذلك الوقت ضرب من المستحيل.

في بعض القرارات السياسية يعرف قادة الدولة ان القرار غير صحيح، لكن التخلي عنه سوف يظهرهم بعين الجمهور ضعفاء، لذا يستمر البعض في قراره، ويحاول العدول عنه بقرارات لاحقة فيما بعد، وطبعاً ستكون الكلفة التي تدفع في مثل هذه الحالات عالية جداً، عليه أصبح وفي جميع الدول المتقدمة نهج لاختضاع القادة الكبار الى اختبارات

الصحة النفسية، بينها ما يتعلق بالقدرة على اتخاذ القرار، وعقلانية اتخاذه.

وفي هذا الجانب تجب ملاحظة أن معظم الناس يعيشون على خبراتهم المتراكمة، لما يتعلق باتخاذهم القرارات، فمن غير الممكن لأي منهم ان يحلل ما يتوقع حدوثه مستقبلا قبل أن يصل إلى قرار، وهو تحت أعباء الضغط الشديد، لذلك يتخذ القرارات بشكل لا شعوري طبقاً لما كان قد فعله أو خبره دوماً، وما يمتلكه من معلومات، وإذا ما سؤل عن مثل هذا القرار، فسيجيب على الفور "الأمر هكذا دوماً" لقد كنا دائماً نفعل الأمر هكذا، ولذلك في معظم الحالات نقرر طبقاً لأنماط مقررّة مسبقاً، وهذه حالة يطلق عليها تهكماً "الأهواء" على الرغم من أن الأهواء تنطبق فقط على الشيء المتطرف.

ولأن رد فعل الإنسان يكون بهذه الطريقة، فمن المهم أن تسنح الفرصة للقادة العسكريين أن يكتسبوا الخبرات اللازمة لاتخاذ القرارات الصحيحة، من خلال التجارب والتدريب والتمارين التي لها أهميتها، كما يكون من الضروري "ثقفة" عملية صنع القرار التي تنطوي على معضلات كبرى أي إضفاء طابع ثقافي على عملية صنع القرار، وهي الفكرة التي تكمن وراء أي تقييم أو تقدير موقف عسكري.

بالإضافة الى ردود الأفعال اليومية التي تم التنويه عنها فأن على المرء أن يصارع ردود الأفعال الناشئة عن ضغوط المواقف القتالية، فالضغط يضيق في المعتاد من قدرات الانسان قائدا أو شخصا عاديا على الإدراك، ويكّون أثراً شبيهاً بوضع غشاوة على العين، أو كمن يسير داخل نفق، وهكذا فالغطاسون في أعماق البحر والذين بسبب خطورة مهنتهم يمكن مقارنتهم إلى مدى معين بالجنود في القتال داخل المدن، فهم كثيراً ما يفشلون بالتعرف على أشياء تظهر على حافة مدى الرؤية لديهم، وقد ينسب الفشل الى كونهم يعيشون تحت ضغط الخوف، الذي يقلل من القدرة على التفكير، وهؤلاء أي الجنود الذين يقاتلون بين الأبنية، قد لا يدركون تفخيخ بعض الدور، وهم قلقين أو حتى خائفين في بعض الأحيان بمستوى يفقدهم القدرة على ادراك التفخيخ منطقياً.

ان عواقب القرار المتخذ تحت الضغط قد لا تكون آثارها السلبية واضحة للقائد/الآمر المعني في حينها، على هذا تصبح المقولة العسكرية الدارجة "أي قرار أفضل من لا قرار" مسألة ينبغي أن لا تغفل العدد المتزايد من القرارات الخاطئة، وآثارها السلبية كلما طال أمد المعركة وزادت ضغوطها النفسية.

وهنا لابد من التنويه الى أن الفترات الطويلة من الضغط تؤدي إلى المبالغة في رد الفعل، وهذا بدوره أيضاً يزيد من عدد القرارات الخاطئة، كما أن المبالغة برد الفعل تؤدي إلى التقلب في الرأي والقرار، والذي يمكن أن يدفع القائد/الآمر الى إعطاء أمر وإلغائه بسرعة، ومن ثم إصداره مجدداً مرة أخرى، وهذا أسوأ أنواع القرارات، وأكثرها تأثيراً على المقاتلين أو بالأحرى من أكثرها ضغطاً على نفوس المقاتلين.

وأخيراً فإن الاعياء والخوف يقللان من الرغبة باتخاذ القرارات، وبسببها يتجه البعض من القادة والأميرين الى تأجيل اتخاذ القرارات أو تجنبها(١٤).

إن هذه الملاحظات لا يقصد بها التقليل من أهمية القول "أي قرار أفضل من لا قرار" بل يقصد بها فقط الإشارة إلى أن عدد القرارات الخاطئة يزداد بسرعة تحت اشتداد الضغوط، وإن أي شخص يعاني من الاعياء الشديد، ومطلوب منه اتخاذ قرارات سيصبح في النهاية عاجزاً تماماً عن اتخاذها أو عن اتخاذها بالشكل الصحيح.

ونتيجة لذلك فالقرارات ذات الأهمية الكبيرة يجب أن لا تتخذ تحت ضغط جسدي ونفسي، فأولئك المطلوب منهم اتخاذ قرارات في المعركة يجب أن يتعرضوا لأقل ما يمكن من الضغط، وإن تكون لهم

القدرة العالية على تحمل الضغط، فإذا لم يكن بالإمكان تحقيق هذا، فأن مثلهم يجب أن يعفوا من الواجب قبل ان يبلغوا المرحلة أقصى لدرجات الاهتياج أو الاعياء التام.

ان إحدى الوسائل الهامة لتقليل عدد القرارات الخاطئة التي تتخذ تحت الضغط، هي إضفاء مسحة ثقافية على عملية صنع القرار. هذه الاعتبارات قد وفرت الأساس لدراسة شخصية القائد، فعلى القائد ان يتخذ القرار الصحيح وعليه تنفيذه، وفي نفس الوقت عليه أن يكون قادراً على مقاومة ضغوط القتال أطول فترة ممكنة.

الخصائص

إن القدرات والخصائص الفكرية المطلوبة في القائد/الآمر المثالي، هي من أجل التقليل من الآثار العكسية لردود الأفعال التي وصفناها سابقاً إلى أدنى حد ممكن.

ان الأمل بنهاية العملية (المعركة) والاعتقادات الشخصية والإيمان يمكن ان تساعد القائد في التخفيف من الضغوط التي يعاني منها هو وكذلك المنتسبين، ومع ذلك فعليه ان لا يعتمد عليها في التخفيف عن ضغوطه بنفس المدى الذي يعتمد فيه عليها من هم تحت أمرته، فالذهاب بعيداً في الأمل قد يدفع البعض الى الاقتراب من الوهم أو الغرق في بحوره. اذ أن الوقوع في حال الوهم من قبل القائد / الأمر يؤثر سلباً على القرار وعلى القدرة في التخفيف عن أثر وشدة الضوط، أي ينعكس الوهم سلباً على قدراته وقابلياته القيادية والشخصية، التي يحتاجها في القيادة واصدار الأوامر، وفي التخفيف من أثر الضغوط. في حين تؤدي الواقعية والانفتاح الذهني الى جعله مرناً في التعامل مع

استجابات منتسبيه، وتدفعه الى التفكير المنطقي الذي يؤهله على ادراك ما يدور من حوله، وفهم تفكير الآخرين.

كما ان الثقة بالنفس تجعله قادرا على اتخاذ القرارات الصحيحة، والجرأة التي يكون من خلالها قدوة للمنتسبين، والمبادأة التي تجعله مبادرا في تقديم الحلول.

إنها قابليات وخصائص شخصية تساعد القائد/الآمر على التعامل مع الضغوط باتجاه تخفيفها، وتساعد المنتسبين على الاستعانة به لتحملها، أما الوهم في مجالها، فيخلق من أمامهم وأمامه حتماً كل الأبواب للتخلص من الضغوط التي تخل بالمعنويات وتؤثر على نتائج القتال.

أن الثقة المتبادلة بين القائد/الآمر وبين المنتسبين ضرورية جداً لتنفيذ المهام وكذلك تحمل الضغوط، وفي كل الأحوال فإنه لا يستطيع ان يؤدي المهمة القيادية القتالية التي توكل إليه دون الثقة بمنتسبيه، والثقة هي أيضا بحدود لا يجب أن يسمح لنفسه بتجاوزها بكلا الاتجاهين الطرفين، أي لا ينبغي أن تتحول الثقة الى ثقة مطلقة "ثقة عمياء" حتى لو كان المنتسبين من جانبهم يشعرون بوجودها فعلاً اتجاه أمرهم. وفي المقابل ينبغي أن لا تنعدم الثقة بالمطلق أيضاً، وبما يؤدي الى ابتعاد المنتسبين مسافة تحول دون تفهمهم للمهام، ولا الحماس لتنفيذها،

وتجعل الأمر شكوكاً، يثير الارتياح لدى المنتسبين. وبالتالي وبدلاً من أن يصبح مصدرًا للتخفيف عن الضغوط التي يعانون منها في القتال، يكون سبباً في حصول ضغوط إضافية.

إن القائد/الأمر يجب أن يسيطر على المنتسبين، ويتصرف معهم بطريقة محسوبة تبقي المسافة النفسية معهم قائمة كما هي، وتبقي الثقة بقدر يساعد على التدخل في التخفيف بالوقت الذي يراه مناسباً، ويقبله المعنيين.

وفضلاً عن هذا فإنه لا يستطيع كما يريد أن يبني - إلا أحياناً - ذلك النوع من الثقة مع رؤوسائه، كتلك الثقة القائمة بينه وبين منتسبيه من الضباط والمراتب، وهنا فإنه سيجد نفسه محظوظاً إذا ما أفلح في كسب ثقة من هم أعلى منه دون مبالغة، فمثل هذه الثقة قد تعطيه حافزاً إضافياً لمواصلة المهام.

كما يجب على القائد المحافظة على لياقته البدنية، فهو في وضع غير ملائم لأنه أكبر سناً من رجاله، وفضلاً عن ذلك ونتيجة واجباته، فنادرًا ما يكون بوسعه ممارسة التمارين البدنية، ومن هنا فردود أفعال الضغط ستؤثر عليه أكثر مما تؤثر على من هم تحت أمرته، أما فيما يتعلق

بالتدريب البدني فالقائد لا يجد فرصة لممارسة نفس التمارين والحركات التي يمارسها المنتسبين.

ان مهمة القائد حقاً أعقد من مهمة مرؤوسيه، والقتال الذي يخوضه لا يسمح في كثير من الأحيان باتباع معطيات التدريب، كما مدون في الكرايس، وهنا يأتي أثر الذكاء والمرونة والانفتاح الذهني التي تجعله يقرر بالشكل الصحيح بالتأسيس على المعرفة المكتسبة، والخبرات التدريبية، والقراءات التخصصية والعامة، والثقة بالقدرة على النجاح. وعليه أن لا يتوقع نفس معطيات واستجابات وممارسات القيادة مع رؤوسائه كما هو الوضع مع منتسبيه، ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى هرمية القيادة وضوابطها، التي تتطلب تراتبا أعلى فيه المشاعر مختلفة، ووضع مع الأدنى خال من العواطف، وعموماً فان كل قائد/آمر عليه أن يضع في حساباته ابداء مشاعر أقوى إتجاه مرؤوسيه وأكثر مما يتلقى من رؤوسائه. انها معطيات ذات صلة بالخصائص والصفات تؤثر في جوانب الضغوط جملة حقائق أهمها:

١. لا يستطيع القائد ان يعتمد كلياً إلا على نفسه، فهو واقع تحت ضغوط أشد من كل الآخرين.

٢. عند اختيار القائد/الآمر - أي قائد أو آمر - فأن الخصائص الشخصية هي التي يجب أن تلعب دوراً حاسماً في الاختيار.

٣. يبقى التدريب العامل المساعد في صقل الشخصية القيادية، وتقوية خصائصها الايجابية اللازمة لانجاح القيادة.

إن القادة والآمريين قد يكونون في مواقف قتالية غير ملائمة، أي ضاغطة عليهم والمنتسبين، وفي المواقف الصعبة منها قد يجدون أنفسهم في حال، وقد توقفت من أمامهم الآمال، وأنعدمت الثقة، وتدنت اللياقة البدنية، ومع هذا فهم مطالبون بمواصلة مهامهم القيادية، والتخفيف من شدة الضغوط الحاصلة على منتسبيهم حتى مع وجود قيادة أعلى بجانبهم أحياناً.

كما ان القائد هو أيضاً معرض للاجهاد، والوقوع تحت الضغوط التي تعيق تركيز قواه العقلية، وتقلل من قدرته على التفكير، وقد تدفعه باتجاه المبالغة برد الفعل، وأخيراً تقتل رغبته في اتخاذ القرارات، فإذا كان القائد/الآمر غير قادر على تحملها، والتعامل معها بشكل صحيح، فسيكون غير قادر على التخفيف من الضغوط المسلطة على منتسبيه، وغير قادر على الحصول على دعمهم له في المعركة التي سيكون مسؤول عنها، وهو من يتحمل اخفاقاتها.

ان وضع القائد في المعركة حرج، وفيها سيعتمد في تعامله مع ضغوطها على شخصيته، وقابلياته، ومعرفته المكتسبة، وهو من يتحمل العبء الأكبر بدعم أقل، لذا وفي مواقف كهذه لابد وأن تركز كل الجهود من المستويات الأعلى والأدنى على مساعدته في تحقيق النجاح بقيادة الرجال وتحقيق أهداف المعركة من ناحية، وحماية أرواح المنتسبين الى أقصى حدود ممكنة من ناحية أخرى.

الفصل الخامس

مواجهة الضغوط النفسية للمعركة

غيمة الضغوط

ان العوامل التي تؤثر في الناس وتشكل لهم ضغوطا خلال حياتهم الاعتيادية "المدنية" عديدة، وهي ذاتها تتكرر في الحياة العسكرية، وفي ميادين القتال، بشدة أكبر، وتطرف أشد.

فالحرمان يحصل بشكل تام، والمفاجئة تحدث قوية، والافرازات الهرمونية تفرز بمستوى عال "الافراط بالنشاط"، وفي المقابل يمكن أن يكون سكون تام. جميعها تشكل ضغوط تشتد في الحرب وخلال المعارك، وتتعدد أوجهها، وبعض هذه الأوجه يتعلق باحترام الذات الذي يتعرض للأذى ويجعل الشعور بالعزلة أمر مزعج، ومع هذا فمثل هكذا ضغوط وغيرها لا يمكن تعميم حصولها على جميع المقاتلين، فبعضها لا يؤثر الا على أفراد معينين، مثل الرعب الناجم عن هجوم معادي أو الألم الناجم عن الاصابة في المعركة، أو الخوف من القصف المعادي، ومع هذا يأخذها المختصون بنظر الاعتبار في تناولهم لموضوع الضغوط التي يشبهون عواملها بغيمة داكنة مثقلة بالمطر يمكن تسميتها بـ (غيمة الضغوط) التي تتألف ضمناً من بعض المخاوف، كالخوف من:

العزلة الجسدية والنفسية.

والخوف من المجهول.

إلى جانب الخوف من الإصابة بعاهة أو العوق.

والخوف من الحرمانات المادية.

إنها غيمة يشبهونها بالغيمة الكثيفة التي تمطر في بحيرة (الأعياء الجسدي والنفسي التام)، عندما تمتلئ إلى حد كامل، لابد لمائها أن يجد منفذاً، يتسرب منه ليغمر الشاطئ، وإذا ما توقفت الغيمة عن المطر فسيهبط مستوى المياه، ويتوقف التسرب، لكن ماء البحيرة باق لم يتبخر كلياً.

هذا وإذا ما مرت البحيرة بفترة جفاف ستكون قادرة على استقبال كمية كبيرة من المطر دون حصول التسرب. وإذا ما عاودت المطر مرة أخرى كثيراً فإنها ستمتلئ وتفيض في نهاية المطاف.

إنه تشبيه للوضع القتالي الذي يمكن أن يحدث فيه الانهيار الجسدي والنفسي، فالانهيار هنا هو التسرب أو الفيضان الذي يتأخر عندما لا يكون المطر "الضغط" شديداً، وعندما تكون هناك فترات جفاف أي القطع والتمتع بالراحة التي تغيب أو تقلل خلالها الضغوط، تقل أو تختفي المعاناة والاضطراب.

وهو تشبيه يوضح أهمية اعطاء المقاتلين قدر من الراحة، عندما يشتد القتال وفي أعقابه أيضاً.

وأخيراً لا يمكن لبحيرة الضغوط أن تجف بالتمام، اذ وبعد فترات طويلة من المطر "الضغوط" ستبقى بعض المياه "ترسبات الأثر" لفترات أطول من الاعتيادي، وربما تبقى إلى الأبد، مما يتسبب في زيادة أكثر من الاعتيادي في مستوى الماء "الترسب" عند حلول موسم جديد للمطر "الضغوط الجديدة"، وهذا يفسر وضع الجندي الذي له خبرة في القتال والذي يدخل المعركة بمستوى أعلى من القلق من الجندي المستجد.

التعامل مع الضغوط

لقد أصبح واضحاً أن المقاتل في المعركة يتعرض لضغوط شديدة الوطأة، ربما تدفع البعض إلى حافة الانهيار التام جسدياً ونفسياً، ولأجل تلافي ذلك ينبغي التعرف على أهم الأساليب الدارجة لمقاومة تلك الضغوط أي التعامل معها:

١. الاندماج.

إن أهم إجراء لمقاومة الضغوط الممكنة في الوحدة التي تخوض قتالاً، تتمثل في اندماج الجماعة (حزيرة، فصل، سرية..الخ) في اطارها العام، فإذا كانت الجماعة متكاملة الأدوار، ولديها الوقت الكافي لنمو أعضائها سوية تحت الضغوط الخارجية فسيتحقق التماسك، وستظهر في أعقابه قواعد السلوك الجماعية، التي لن يتجرأ أي فرد فيها على انتهاكها، ومن ثم تصبح الجماعة النقطة البؤرية (المركزية) التي يحتكم الأعضاء إلى معاييرها، فيصبح حينئذ سلوكها وحدة واحدة في القتال، فالشجاعة على سبيل المثال معيار يفترض أن يكون موجوداً لدى الجماعة، وعلى أساس الاندماج والتماسك، فإن الجندي الموجود في الحزيرة وعندما

يشعر بالخوف مع نفسه من عدو يتقدم نحو موضعه، فسيجد أنه موجود ضمن حضيرة شجاعة مجربة، عندها سيقبل خوفه ويخف تأثير الخوف عليه أو يتبدد بالتدريج، وكأنه يأخذ جرعة الشجاعة من الآخرين الموجودين حوله، جرعة تعزز سلوك التحدي في داخله، وتكسبه الشجاعة هو أيضا.

الا أن التماسك والاندماج القوي للجماعة أي أكثر من المعتاد ليس مفيدا على طول الخط، اذ وعلى الرغم من مزاياه فله عيوبه أيضا، فالجماعة وكلما كانت معتدة بذاتها الجماعية وتركز على نفسها، كلما قل اهتمامها بمثيرات البيئة التي تعيش فيها، أي بالآخرين من حولها، والذي يخشاه المختصون وعلماء النفس العسكريون هو أن الفصيل الذي يشعر بذاته الجماعية أكثر من اللازم قد لا يعير اهتماما للفصيل الذي يجاوره أثناء الهجوم على هدف معادي، وقد يتجه الى التقليل من قيمة الفصيل الآخر عند طريق السخرية، فيتسبب منتسبوه ومن دون أن يعلموا في التأثير سلبا على المعنويات.

ان هذا النوع السلبي من السلوك وبالتكرار قد يتعزز في نفوس بعض الوحدات، عندها تصبح الوحدات المجاورة والساندة لهذه الوحدة ومن ثم المدنيون والأنظمة لا معنى لها، وما يهمها هو الأهداف

والعوامل التي تؤثر فيها مباشرة، ورغبة أفرادها بتميز جماعتهم عن الجماعات الأخرى^١، وهنا أي في حالة الغلو لما يتعلق بالذات والتماسك قد تؤدي إلى اتخاذ مواقف ازدراء وتصغير للآخرين، مواقف يمكن أن تتطور أحياناً إلى رفض تام، لكل ما هو محيط بها.

حقائق نفسية

هنا تجدر الإشارة الى أن كل فرد على وجه التقريب يحاول أن ينظم إلى مجموعة سواء في زمن السلم أو في الحرب بالنسبة الى المدنيين أو العسكريين، على هذا تكون عيوب الغلو في التماسك الجماعي واردة،

^١. إن هذا النوع من السلوك، ذكره علماء النفس في أدبيات علم النفس العسكري، على وفق تجارب حصلت في حروب عالمية، وعند مقارنتها في التجربة العراقية، لم نجد مثل هكذا نوع من السلوك، لسببين رئيسيين الأول ان ادارة الجيش بعد عام ١٩٦٨ كانت سياسية وليست مهنية، حاولت ولأسباب سياسية أن تقضي على روح التماسك الجماعي خارج اطار الاندماج الحزبي الذي حاولت احلاله محل الاندماج العسكري، الذي يفترض أن يكون موجودا لتكوين روح الجماعة، والسبب الثاني يتعلق بالحروب الطويلة والمتعددة التي خاضها الجيش العراقي، والتي أسهمت في تفتيت روح الجماعة وأخلّت بالتماسك، وأخلّت الفردية والرغبة في تحقيق الذات الحزبية الخاصة على الذات الجماعية للوحدة.

ومع هذا وفي ضوء الفوائد الهائلة للتماسك بالنسبة الى الوحدات يمكن القول أن لا بديل عن وجوده، وعن تنميته بين المنتسبين اسلوبا لتخفيف وطأة الضغوط على نفوسهم.

أن خلق تماسك قوى للجماعة يجب أن يكون الهدف الرئيس لكل أمر، علما أن الجماعة تحتاج إلى الوقت الكافي لتنمو إلى كل متكامل ومتماسك، لذلك يجب النظر الى المحافظة عليها في أن لا تتمزق وتشتت من خلال:

أ. التدريب الخاص بتكوين الأداء الجماعي، والتحمل الجماعي وتبادل الاسناد وغيرها.

ب. الادارة العادلة، تحمل المسؤولية الجماعية، التوزيع الصحيح للمنتسبين على المهام، وتغيير المواقع في الميدان اذا ما اقتضت الضرورة تغييرها تخفيفا للضغوط.

ان بعض الوحدات الجيدة تقاقل على نحو أفضل من الأخرى، لاسباب بينها تماسك أعضائها، لذلك يصبح من واجب القادة/ الأمرين أن يسمحوا لمثل هكذا وحدات للحصول على فرص كافية للتعبير عن نفسها والاعتزاز بتميزها كأساس لتعزيز وادامة التماسك.

ان التماسك لا يقتصر على العلاقة القريبة بين المنتسبين بالحضيرة والفصيل، صعودا الى الوحدة والتشكيل، اذ أن هناك اشكال أخرى من التماسك، يمكن رؤيته في العلاقة بين الجندي في خطوط القتال الأمامية، وبين الشعب في المؤخرة "داخل الوطن".

فالأصدقاء والزوجة والوالدان والأطفال، وغيرهم من المقربين لهم أهمية في زمن الحرب أعظم مما هي عليه في زمن السلم، وهي علاقة تماسك عاطفية، يلعب فيها الحب والاهتمام والتقدير أهمية في اشعار الجندي على انه ينتمي الى الجماعة الأكبر "الشعب" وانه جزء منها يدافع عنها، وتقوم من جانبها بدعم وجوده، وهناك أمل في النصر وحسم القتال لصالح الوحدة/القيادة/الجيش/الدولة^١، مما ينعكس ايجاباً على الأداء والمعنويات.

^١. أن الأمل الذي تم تناوله في عنوان سابق، يحتل نفس أهمية التماسك الخاص بالجماعة تقريباً. ليصبها سوية من عوامل التأثير المباشر على الأداء والمعنويات، وعلى تحمل الضغوط في المعركة، وهناك عدة طرق للتعبير عنه بينها تأمل انتهاء الحرب أو المعركة، التي يخوضها المقاتل، ويمكن أن يعني الأمل فترة من الوقت يمضيها أي المقاتل في منطقة الاستراحة على مقربة من خطوط القتال، وقد يعني إجازة لفترة

ان الضغوط النفسية في أثناء القتال يمكن أن تتضاعف شدتها عند حصولها في الوحدات التي تعاني سوء الادارة، وكثر الاخطاء والتجاوزات. فالجندي الذي يحصل لديه انطباع بأنه مُستغل من قبل الأمر المباشر لأغراض شخصية، والآخر الذي يعتقد أنه موجود في الجبهة يقاتل ويتعرض الى الخطر، وزميله جالس في البيت يتمتع بحياته الاعتيادية، لأنه يتبرع براتبه للوحدة أو للآمر، فانهما سيشعران باعباء القتال وضغوطه بقدر يفوق كثيراً المنتسبين الذي يخدمون في وحدة أخرى أمرها عادل وكفوء ونزيه.

وهنا أو في هذا الجانب توجد حقائق نفسية لابد من أخذها بالاعتبار عند النظر الى موضوع الضغوط مفادها:

محددة، أو النقل الى وحدة أخرى، والشيء الهام هو أن يكون للجندي هدفاً واضح المعالم، يمكن بلوغه أي تحقيقه.

أ. أن كل مقاتل على استعداد لتحمل نصيبه من عبئ الضغوط الآتية من القتال شرط أن يفعل الآخرون في الموقف نفس الشيء الذي يفعله.

ب. يجب أن تكون هناك خطة واضحة، وموثوقة لتوزيع عبء الضغوط بالتساوي على كل أفراد الجماعة.

خلاصة القول في هذا الشأن، أن اندماج الضابط بوحدته الفرعية "الفصيل، السرية" الذي يقوده مهم، الا انه اندماج مقنن حيث يحافظ فيها الضابط على المسافة النفسية الافتراضية بينه وبين منتسبيه، لكي لا يؤثر ذلك على دوره كقائد، وعلى أية حال فالضابط لا يستطيع الاندماج كلياً بوحدته بسبب حاجته لأن يكون في مكان آخر معظم الوقت.

هذا وان الاندماج الكامل "دون حدود" بأية جماعة/ وحدة سيكون ضاراً من حيث ان المستلزمات السلوكية التي حددتها التقاليد العسكرية يمكن أن تتأثر، وتؤثر على قدرة الضابط النفسية في اتخاذ القرارات الصحيحة، علماً أن لا أحد من الضباط يستطيع التخلص من تأثير قوانين وضوابط الجماعة "الفصيل، السرية صعوداً إلى أعلى المستويات" وقيمها.

إن علماء النفس العسكري يفترضون وجود مسافة نفسية بين الضابط، وبين منتسبيه، عليه يكون الاندماج بالقدر الي يبقي هذه

المسافة قريبة من حالها المفترض في كل الظروف والمواقف، فمثلا يتطلب الاندماج جلوس أمر الفصيل مع جنوده، وقد يتكلم معهم عن مشاكلهم وعن الوحدة، ويمكن ان يشاركهم فعالية ترفيهية ومع هذا لا يتكلم بابتدال يخل بالمسافة النفسية بينه وبينهم، ولا يقرب بعضهم اليه بحيث يضحون جالسين في مقره طوال الوقت أو يستغلهم لأغراض شخصية أو يسهر معهم سهرات خاصة اثناء الاجازات، وغيرها أعمال تجعل المسافة بينه وبينهم قريبة بالحدود التي تحول دون احترام، وتنفيذ قراراته الصعبة أو الخطرة.

٢. الإيمان.

يعني الإيمان باللغة، الثقة الكاملة، الاعتقاد والفضيلة، وكلمة الإيمان بحذ ذاتها تستخدم عدة استخدامات، أقربها الى الاعتقاد في الشيء أو الفكرة، كنقيض الى الشك والظن، وبخلاف هذه الاستخدامات فإن الإيمان كلمة تشير الى العلاقة النفسية الخاصة مع الغير، كأن يكون الخالق "التصديق الجازم بوجود الله"، أو الدين أو المذهب أوسطاء مع الخالق.

على وفق هذا المفهوم يكون للإيمان معنى عقلي ذا صلة بوجود الانسان في عالم يتطلع فيه الى التقدم، والعيش الأفضل الآمن، من خلال

علاقة ارتباط يكونها مجموعة من المبادئ والمفاهيم، تنظم سلوكه والجماعة ضمن المجتمعات البشرية الأكبر، وصولاً الى الأمان حضارياً. كما يشار الى الإيمان، انه ما يشعر به القلب صدقاً، وينطق به اللسان فعلاً، أما في الدين فان الإيمان يشير المعتقد الذي يقتنع به المؤمن تماماً.

من هذا فان موضوع الإيمان يمكن أن يكون شيئاً مجرداً او شخصاً أو فكرة أو قولاً، مع ان الإيمان بالأفكار يشكل فلسفة أو أيديولوجية قد لا تكون لها علاقة بالخالق أو الدين.

في الحرب واثناء القتال يعطي الإيمان الجنود المقاتلين، وكذلك الضباط الراحة والأمل.

ففي الحرب، كما في أي أزمة أخرى، يزداد الاهتمام بالدين والقضايا الروحانية بشكل ملحوظ، ويصبح الطلب على رجل الدين والاستشارة الدينية كنوع من الإيمان واضح وملمس.

ان الإيمان وكما ورد أعلاه، لا يتوقف على الدين والخالق، ولا يقتصر على رجل الدين كوسيط لتعزيز معنى الإيمان في النفوس، بل وكذلك الإيمان بالقضية التي يجري القتال من أجلها، والإيمان بالوطن الذي يتم الدفاع عن وجوده، سلسلة تمتد حتى الإيمان بقدرة الأمر والقائد في ادارة

الرجال، اذ انه اي الايمان، يمد اصحابه بشحنات انفعالية تساعد على تحمل الضغوط، وتعطيهم قوة دفع للانجاز بالمستوى المطلوب، الذي يريدونه في داخلهم، ميلا للوفاء أو تحقيق الرضا، وأحيانا رد الجميل لمن آمنوا بهم رجال أو مؤسسات اعتبارية.

أن وقائع الحرب وشدتها تفرض على بعض المقاتلين أحيانا التهرب من واقعهم الضاغط، والشرود ذهنياً باتجاه صياغة أفكار يضعون أنفسهم فيها كنوع من الحماية العقلية، تسحبهم بالتدريج الى اليأس وربما الاصابة ببعض الاضطرابات النفسية، لكن وجود الأمل وقدر من الايمان يكسران طوق الأفكار اليائسة، ويدفعان المعنيين الى الخروج منها الى عالم الواقع، الذي يساعد على انهاء حالة الوهم والانكفاء على النفس.

ان فك قيد الانغلاق الذهني أي الانفتاح، وتأمين الاتصال بالجماعة، والايمان بالمبادئ القيمة تدعم مقاومة الضغوط، وفي موضوعها لاحظ علماء النفس العسكري أن الاندفاع، والاستقلال، واحترام الذات، والذكاء، والتربية والتعليم، وحب الدعاية تساعد على مقاومة ضغوط المعركة الكبيرة، وبخاصة العسكريين الذين يتحملون وحدهم على وجه التقريب

مصاعب كبيرة كالقادة والأميرين، وكذلك بعض المنتسبين الذين يقاتلون وهم منعزلين عن وحداتهم.

ومع هذا فان خصائص الشخصية للضابط وضابط الصف والجندي ذات أهمية في تكوين الاندماج والأمل والايمان، دون اسقاط العوامل الخارجية مثل الحرمان المادي، وشدة الفعل المعادي، وغيرها في الاحساس بالضغط، حتى يمكن التأشير الى أن:

س: أي الاحساس بالضغط = خصائص الشخصية x عوامل القتال الخارجية.

انها معادلة تكوين غير معروف كم العامل المشارك في تكوين نتيجتها "س"، فقد تكون خصائص الشخصية من القوة بالقدر الذي تسهم في تكوين نتيجة تحسس قليلة وقوة تحمل عالية. عليه يكون عامل الشخصية والاعتماد عليها مهم في الحرب للتعامل مع الضغط، ويكون على الأمرين والمقاتلين المنعزلين الاعتماد على عواملهم الشخصية أكثر من غيرهم في مجال تحملها والتعامل معها (١١).

٣. التدريب البدني.

ان التدريب والرياضة مفيدان لتعرف المقاتلين على خصائصهم، البدنية على وجه الخصوص والتي تساعد على التحمل، اذ أن كثيراً

منهم عادة ما يخطؤون في تقييم لياقتهم البدنية للقتال، وهذا يتعلق بعدم فهم أهميتها زمن السلم، وعلى هذا يكون التدريب البدني والممارسات الرياضية مفيدان لتسريع فهم المقاتل لخصائصه، وكذلك في مجال دمج الجماعة وتكوين أمل في النجاح، والايمان بقدرة الجسم على التحمل وبذل الأحسن في الأداء.

إن اللياقة البدنية وعلى أهميتها في تحمل الضغوط فان المقاتلين، وعلى اختلاف قابلياتهم يحتاجون للنوم والطعام، والشراب للحفاظ على لياقتهم. حاجات اذا لم تلب بالقدر الكافي فان الكفاءة، والمعنويات ستتهور بسرعة، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية في الحرب، لذلك ينبغي أخذ هذا بنظر الاعتبار عند إصدار الأوامر أو تنفيذ بعض الفعاليات، اذ أن النشاط، والتمارين هامة للمقاتل الذي يتعرض الى ضغوط المعركة.

وفي المقابل فان الراحة الزائدة عن الحدود الطبيعية المألوفة، تسمح للمقاتل الاستغراق في الهموم، فإذا ما اضطر أحد من المنتسبين على سبيل المثال أن يظل ساكناً لفترة طويلة نسبياً، خلال ظرف قتالي فيه الضغط موجود بشكل شبه متواصل، كأن يكون قد أقرب العدو من الموضع الدفاعي الذي هو فيه، أو أن قصفاً مدفعياً شديداً ومفاجئاً يتواصل على

الموضع أو المكان الذي هو فيه، فسيصل هذا المقاتل الساكن سريعاً إلى مرحلة أو حالة نفسية، لن يعود بوسعه خلالها قادراً على احتمال الوضع الضاغط لمدة أطول، حيث البدء بالتصرف بشكل لا عقلائي.

هذا ولمواجهة وضع يمر به المقاتلون كهذا لابد من تلقينهم أثناء التدريب أن القيام بأي نشاط بدني، ومن أي نوع بين الحين والآخر وكذلك الصباح، وإطلاق النار "كسر السكون" ستمكنهم من مواصلة التحمل لفترة أطول رزمنياً^١.

وأخيراً يتضح ثانية أن العمر والتجربة للمقاتلين تميلان لكي تكونا عامل لا يساعد على تخفيف الضغوط، بالمقارنة مع الجنود الشبان المندفعين، المدربين جيداً، أي أن الاندفاع والشباب والتدريب، عوامل

^١. في تجارب الحرب العراقية الإيرانية، وكذلك في الحرب الأخيرة على الإرهاب، يتضح أن نسبة غير قليلة من المقاتلين عند الاشتباك بالعدو، وكذلك عند الشك بوجود عدو يستهلكون من العتاد أكثر من حاجة المعركة الفعلية، وذلك بسبب الرمي قبل انضاح الهدف، والاستمرار بالرمي بعد انتهاء الموقف، أي عدم السيطرة على الرمي، وقد حاول القادة الميدانيون بشتى الوسائل من ضبط الرمي والسيطرة عليه، لكنهم فشلوا في غالب الأحيان، ويبدو أن السبب المنطقي لهذا السلوك يعود إلى الإحساس بالضغط الشديد في الموقف القتالي، وكون الرمي بحد ذاته سبيلاً لتخفيف هذا الضغط.

لتحمل الضغط أكثر من مجرد العمر الزمني، وممارسة العيش تحت الضغوط، وهذا يعود بطبيعة الحال الى امثال السابق عن بحيرة الضغوط المشار اليها آنفا حيث التراكم الكمي لأثر الضغوط في النفوس وأمتلاء الخلايا العقلية الخاصة بتخزينها. على الرغم من عدم اسقاط فروض نفسية، من أن التعرض التدريجي الى بعض الضغوط أثناء المعارك، بالنسبة الى المقاتلين الأصحاء نفسياً، يكسبهم قدر من المناعة النفسية اللازمة لمقاومة، أو تحمل الضغوط الأشد حدة، التي تحصل في المعارك اللاحقة.

على هذا تسعى الجيوش أن ترفد وحداتها المقاتلة منذ السلم جهد الامكان بالضباط والمراتب الأصغر سناً، تدريبهم جيداً لاكتساب المهارات اللازمة للقتال وتحمل الضغوط.

ان التدريب الذي يساعد على التحمل هو التدريب الواقعي اذ انه يساهم وبالإضافة الى اكساب المهارات والقدرات البدنية على التحمل فانه يساهم في تقليل الخوف من المجهول وغير المتوقع، ولا شيء مما يواجه الجندي أثناء العملية يدعو لإثارة دهشته، بما في ذلك أعراض القلق التي تبدو عليه، وبهذه الطريقة أي التدريب يصبح أكثر دقة.

ان التدريب بشكل عام وبينه البدني لزيادة القدرة العضلية، يسهل التعامل مع الأسلحة والمواقف القتالية طبقاً لتكرار مكتسب، وهو يساعد المجموعة من التعاون بسهولة في مهمات تعبوية صغيرة، ونجاحهم كمجموعة في تأدية المطلوب أثناء التدريب، والاحساس بالكفاءة على التنفيذ، سوف يشجعهم على تأدية نفس السلوك أثناء القتال الفعلي كنوع من الثقة بالنفس المكتشفة أصلاً، أثناء الموقف التدريبي. وهنا يشعر المقاتل، وكأنه في حالة اعتيادية، ومنسجم مع الموقف القتالي.

ان التدريب عامل مهم في تحمل الضغوط، وفي اطاره يعترف جميع القادة، والمختصين النفسين بأهميته، ولا أحد ينكر هذا، الا انها حقيقة لا تقلل من أهمية العوامل الأخرى، المعنية بمقاومة الضغوط التي نوقشت آنفاً، ومع هذا يبقى التدريب البدني عامل مهم من عوامل الاندماج، والثقة وتقوية الشخصية، واللياقة البدنية (١٢).

٤. القيادة.

ان القيادة تلعب دوراً كبيراً في امتصاص الضغوط، ولكن من المستحيل تقريباً تقدير تأثيرها الكلي كأحد العوامل الخارجية، فالقائد يساعد في تحقيق مصالح الجماعة المقاتلة والفرد المقاتل، وهو يحقق

الحاجة لقيادة فاعلة، يشعر بوقعها معظم المقاتلين والناس العاديين، ويحتاجون اليها بدرجة كبيرة خاصة أثناء الشد والتوتر والازمات. غير أن تأثير القيادة متباين جداً من موقف الى آخر، وعلى وجه العموم يصعب في الحياة العسكرية انجاز المهام القتالية والعادية دون وجود قيادة فاعلة، قيادة قد تلجأ في بعض الأحيان الى القسوة في فرض تنفيذ الأوامر، وهذه حالة تستلزم جهداً إنسانياً فائقاً تقريباً، ولذلك فقد تكون للقائد/الآمر في حالات معينة أهمية حاسمة، نظراً لأن بعض الأزمات قد لا تحسم بدونه، ولذلك يجب أن ينتقى ويدرب بشكل يأخذ بنظر الاعتبار هذه الأوضاع.

ان العوامل المذكورة لتخفيف الضغوط "التعامل معها" تستهدف جميعها تعزيز الثقة بالنفس من جانب وبالآخرين "الجماعة والقائد/الآمر" من جانب آخر، لأنها هي القاسم المشترك أو الأساس المركزي لما يتعلق بأداء المقاتل في ساحة المعركة، وأن كل عامل من العوامل المذكورة يسهم من جانبه في بناء هذه الثقة وتعزيزيها، حتى أصبحت الثقة غاية تعمل الوحدة العسكرية على تكوينها، ويعمل الشعب برمته للمساعدة في تعزيزها ثقة بالنفس والوطن والقدرة على الدفاع عنه.

في ضوء ما تقدم يتضح أن الجندي في المعركة يحتاج الى اتخاذ القرارات في بعض المواقف خارج اطار الجماعة وبما يشبه مسعف مطالب بإنقاذ جريح علق في أعلى قمة جبل، الوصول اليه صعب وخطير، تلك هي مهمته، التي يمكن حل معضلتها بأشكال عديدة.

بوسعه أولاً التخلي عن المهمة ليأمن سلامته، أو يجازف بالاستمرار في التسلق لإنقاذ الجريح، وبإمكانه التوقف منتصف الطريق متعباً ليعود من حيث أتى معترفاً بعدم القدرة على اكمال المشوار. إنه موقف صراع لا يستطيع المنقذ من الناحية النفسية البقاء فيه أسيراً لتجاذبات الخيارات المذكورة، لأن البقاء فيها دون حل، زمن يستهلك قوته أي ضغط نفسي يؤدي به الى الاضطراب، كذلك الحال بالنسبة الى المقاتل في بعض المواقف التي يواجه فيها خطراً يقيمه عالياً، وهو وان لم يعلن خياراته لأن الأوامر والضوابط العسكرية، لا تسمح بالخيارات الفردية في تنفيذ المهام، لكننا لو استطعنا أفترضاً النفاذ الى تفكير مقاتل ضمن مجموعة يراد منهم أقتحام دار يشتبه بوجود ارهابيين داخلها، فقد يواجه البعض من المقاتلين عدة خيارات بينها الالتزام بالأمر، وأقتحام الدار كما يجب أن يكون أو كما تدرب على الحالات المشابهة من قبل، أو التباطؤ تدريجياً حتى يتأخر عن جماعة الصولة لأي سبب كان، أو حتى التسرب من

المجموعة ومغادرة المكان هروباً، وقد يهرب عقلياً من خلال شروذ الذهن بعيداً عن الظرف القائم.

ان الزمن هنا وفي هذا المثال عامل ضغط لا يقاوم، وفي اطاره لابد من التصرف كأحد الخيارات المذكورة أو حتى غيرها، وإذا لم يتصرف في حينه سيجد البعض أن جهازهم النفسي هو الذي يتصرف، فالخوف من العقوبة مثلاً قد لا يدفعه الى الهروب من الموقف، والخوف من الموت أو الإصابة قد يمنعه من التنفيذ، والتباطئ قد يشعره بالجبن الذي لا يريد أحدا اتهامه به، وهنا قد يتدخل الجهاز النفسي لا اراديا ويدفع البعض ممن لا يمتلكون الطاقة النفسية الكافية الى فقدان السيطرة على الذات "اصابة نفسية" كالهلوسة، والبكاء وأحيانا إيذاء النفس أو الآخرين.

لكن المهام العسكرية التي تنفذها الجماعة، يمكن أن تدخل عامل مهم في التخفيف من الضغط القتالي الحاصل على أحد أفرادها، من خلال التماسك التي عملت على تكوينه، والأمل الذي تضعه، والإيمان والثقة وحسن القيادة.

إن المنقذ والمقاتل على حد سواء يميلان نفسياً وباستمرار للتخلص من عبئ الزمن الثقيل من أجل النجاة بنفسيهما بسرعة أكبر، وهنا قد ينتقل الواحد منهما لا اراديا الى الجماعة التي يثق بها قادرة على

المساعدة بترجيح أي من الخيارات التي يصعب اختيارها على انفراد،
ويأتي معها دور القائد في الجماعة الذي يبقى المقاتل ينظر اليه، ويحتاج
الى مساعدته في حسم موقف الصراع، على هذا يكون تدخل القائد مهم،
بعده اتجاهات بينها:

- أ. تشجيع المقاتل وزيادة همته لأن يستمر.
- ب. تنبيهه من أجل قطع مسلسل السرحان، وإعادته سريعاً الى الوعي
بما يجري من حوله.
- ج. توجيه التحذير الشديد للحيلولة دون قيامه بالفعل السلبي.

الفصل السادس

دور القادة والأمين في التعامل مع الضغوط

حقائق انسانية

عند مناقشة الدور الخاص بالقادة/الآمرين لابد في بداية المشوار من الإشارة إلى جملة حقائق بينها:

١. أن البشر في البيئة العسكرية والمدنية على حد سواء، وفي أي زمان ومكان، منقسمون إلى قادة وأعوان.

٢. ان الانقسام معادلة أزلية تعد جزءاً من حالة عدم المساواة المتوارثة، وغير القابلة للتغيير، يشكل الاعوان الغالبية العظمى في طرفها الأول، وهم بحاجة إلى سلطة "القادة في الطرف الثاني" لكي تتخذ القرارات بالنيابة عنهم، ولتخفف عنهم ضغط القرارات.. قرارات يذعنون لها دون سؤال في معظم الحالات.

٣. ان معظم جيوش العالم، تمتلك أمثلة على قادة يحملون رتباً عالية في الترتيب العسكري، لكنهم غير مؤهلين لممارسة دورهم كقادة قادرين على تخفيف الضغوط عن منتسبيهم أو توزيعها عليهم بالشكل الذي يسهم في تخفيف شدتها، وهذه حالة يقصد بها أن الرتبة العالية لا تخلق بالضرورة قادة بالمعنى الدقيق لمفهوم

القيادة الناجحة، ولا يعني ذلك انتقاصاً من القادة ذوي الرتب العالية في أية حال من الأحوال، ومع ذلك فإن الإعياء التام، والتردد والاستجابة السلبية للضغوط التي هي جزء من التنشئة، قد تحول القادة إلى أناس غير فعالين أو حتى سلبين يزيدون من وقع الضغوط على منتسبيهم بدلا عن تخفيفها عنهم.

اسهامات القائد

ان القيادة في واقع الحال تتطلب أكثر من مجرد الرتبة العسكرية والمسؤولية الاعتبارية، ولكي يسهم القائد في تصريف الضغوط وتخفيف شدتها على منتسبيه لابد وأن يكون:

١. قادر هو على تحمل الضغوط، مدرب بشكل جيد لتحملها.
٢. أن يخضع هو للضغوط ذاتها التي يتعرض لها الخاضعون لأمرته، لأنهم مرؤوسين يتطلعون اليه في مواقف الصراع الضاغطة.
٣. أن يكون لهم قدوة في التضحية، واتخاذ القرار الصحيح الذي يخرجهم من المواقف الخطير سالمين، ويخفف عنهم ضغوطه النفسية.

إن القيادة الحقة بالنسبة لعموم المنتسبين تتمثل بالجرأة والقدرة على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، فأمر الحاضرة الشجاع الذي يجازف بحياته في سبيل إخلاء جريح من حضرته إلى مكان أمين، يمثل القيادة الصحيحة القادرة على أن تكون القدوة في الشجاعة والايثار والتضحية، التي يتبعها المنتسبون في المواقف القتالية اللاحقة دون التفكير أو الخوف من تبعاتها. علما أن العلوم السلوكية جميعها لا تقر بوجود إنسان محصن تماماً من الخوف، ولكن القائد الشجاع الذي يرجو كسب ثقة واحترام مرؤوسيه، ويخفف عنهم الضغوط النفسية، هو الذي يسلك سبيلاً واحداً في هذا الشأن، ألا وهو "قهر الخوف".

إن أمر الحاضرة في موقف الاخلاء المذكور، قهر مخاوفه، وتصرف بطريقة لا توحى بالخوف، بل وعلى العكس منها، شجاعة أعطى بها مثلاً، بدد باعطائها مخاوف "ضغوط" عموم منتسبيه.

القدرات والخصائص القيادية

ان القائد/الآمر بحاجة الى قدرة لأقناع لمنتسبيه، ولابد من أن تكون لديه خاصية مناسبة لتحقيق فعل الاقناع، وإذا لم ينجح في هذا فستكون العواقب بمنتهى الخطورة، هذا أمر يكون تأثيره أكثر وضوحا على الجماعات المقاتلة في الخطوط الأمامية، بسبب تعرضها الى الضغوط بوقع أشد.

هذا وإذا لم يكن بالإمكان إقناع مختلف الجماعات "الوحدات والوحدات الفرعية" مثلا أن القضية التي يقاتلون من أجلها وطنية، جديرة بالاهتمام، وإنهم أهل لتحمل المسؤولية لاتهمها، فقد يصبح كل المقاتلين بسبب الضغوط غير فعالين، أو ربما يكونون متمردين كما حصل مع جنود البحرية الألمانية عام ١٩١٨، والايطاليين في شمال أفريقيا ابان الحرب العالمية الثانية، ولنا في تاريخنا الحديث أمثلة عربية وعراقية عديدة، اذ أنفرط عقد الجيش المصري من شدة الضغوط في حرب حزيران عام ١٩٦٧، وأصيب الجيش العراقي بنكسة من هول الضغوط النفسية دفعت آلاف المنتسبين الى الهروب من معارك معروفة في حرب

الخليج الأولى بينها معركة المحمرة، وشرق البصرة، والفاو الأولى، وفي التاريخ الأحداث كانت معركة الموصل في ١٠ حزيران ٢٠١٤ معركة ضغوط نفسية مثالية، انسحب بسببها من أرض المعركة آلاف المقاتلين أمام جماعات ارهابية لا يزيد عددها عن عدة مئات في أحسن الأحوال.

انها نتائج تعطي انطباع كم هو صعب ابقاء المقاتلين في حال من الاتزان النفسي عندما تشتد الضغوط (١٣).

ان القائد لابد وأن يتسم بخصائص بينها القدرة على الطمأنة، والقدرة على التعبير عن نفسه بصورة جيدة، وأن يكون هو مصداً يمتص جزء من الضغوط، ومع هذا فهذه الخصائص وحدها لا تكفي لتبديد الضغوط، بل ومن المفروض أن يكون معها امتلاكه، قدر من المعلومات عن المنتسبين، والموقف القتالي والاستخباري والاجتماعي، اذ أنه وفي فوضى المعركة تصبح المعلومات وسيلة من وسائل القوة.

ان المنتسبين يولون اهتماماً شديداً بكل ما يؤثر مباشرة على مستقبلهم، والمعلومات المطمئنة التي تتعلق بمستقبلهم ووحدهم، هي المعلومات التي يستطيع القائد الذي ان يحصل عليها، ويستطيع نقلها أو تعبيرها الى المنتسبين بشكل غير مباشر، ليكسب بواسطتها مزيد من النفوذ. فرجاله ينصتون إليه بتلهف، فإذا أثبتت معلوماته صحتها، وإذا

كان ينقلها دون تحريف فستنشأ نوع من الثقة بين الجانبين، وهذا بدوره يسمح للقائد بممارسة التأثير، غير أن هذا لا يعدو كونه عملية فكرية تتسم بالعقلانية، ومع ذلك فاتصالات المنتسبين لابد أن تستمر على أدنى مستوى في أوضاع القتال الشديدة. ولابد أن يبقى القادة بدورهم على اتصال مع مرؤوسيهـم تحت كل الظروف، فإذا تعذرت المحادثة المباشرة، مثلاً في حالة القصف الشديد، فيجب المحافظة على الاتصالات بطرق بديلة، لأن الاتصالات بين القادة ومرؤوسيهـم هي من الأهمية بحيث يجب المحافظة عليها مهما كانت التكاليف، حتى لو دعت الضرورة باللاسلكي، أو أجهزة الهاتف النقال^١، فالقادة يجب أن يكونوا على اتصال بمرؤوسيهـم ليبعثوا على الهدوء ويعززوا من ثقة هؤلاء بأنفسهم

^١. ان أجهزة الهاتف النقال وعلى الرغم من أهميتها وسيلة في تأمين الاتصال في العصر الحالي، لكنها في المعركة تعد من أكثر الوسائل خرقاً لجدار الأمن من قبل العدو، ومن أكثرها تأثيراً على سير المعارك، بعد أن بات البعض من المقاتلين يستخدمها للتشكي كنوع من التخفيف عن الضغوط النفسية التي يحسها أثناء القتال الشديد، ولتسريب الاخبار بعضها غير الصحيح لاستجلاب ضغط السياسيين، والقيادة العليا على القادة والأمـرين، ولتبرير ارتكاب الأخطاء، وتعود طلب تدخل أجهزة الاعلام والفصائيات لتقديم العون والنجدة، وهما ينعكس سلباً على المعنويات، والاداء، ويربك القيادة والسيطرة.

وبقيادتهم، وليشعروهم بأنهم يتحملون الضغوط والمخاطر بنفس المستوى، وفي هذا مثلاً حسناً للمرؤوسين في حالة الطوارئ يجب أن لا يخشى القائد من قيامه باتصال مباشر مع مرؤوسيه لأن ذلك يخلق نفس شعور الأمان الذي يعطيه الأب لولده، والتقاليد الاجتماعية والعسكرية القائمة يجب أن لا تقف حائلاً في مثل هذه الأوضاع.

ان الثقة هي الأساس الكبير، ولن يكون للكلمات، والأفعال أي تأثير على المقاتل، إذا لم تكن معززة بدرجة من الثقة، علماً ان القادة والآخرين الذين لا يعنون ما يقولون لن يحققوا الثقة مطلقاً، لأن المواقف تكشف للمرؤوسين الفرق بين الكلمة المنطوقة والموقف الفعلي، وهذا يحدث عادة بطريقة عفوية، والتمثيل أحياناً قد يكون ناجحاً بعض الوقت غير أنه على المدى البعيد سيتم التعرف على حقيقته، الأمر الذي سيخلق شعوراً من الريبة، وعدم الثقة مما قد يجعل من المستحيل إزالته والتخفيف من آثاره السلبية لاحقاً.

ان الثقة لن تنمو إلا ببطء وعلى القائد/الأمير ومنتسبيه العمل، والعيش، وحل المشاكل سوية حتى يحين الوقت الذي ينشأ فيه انسجام تام بينهم، وعليه أن يكون قادراً على البرهنة على انه:

١. سيطلب من المقاتلين، القيام بالأمر المعقولة فقط.

٢. قادر على التخطيط، والقيادة بنجاح.
 ٣. يقدر كل منتسب من منتسبي الوحدة، ويحسبه مهم.
 ٤. يرفع كل واحد في الوحدة.
 ٥. يفعل كل شيء في سبيل تأمين العون، والإسناد للوحدة من خارجها.
 ٦. سينقذ كل مقاتل من منتسبي الوحدة عندما يواجه مشكلة.
- إنها قدرة، يقصد بها القدرة على القيادة والسيطرة، وهذا ما يحدث عندما يعمل القائد من أجل مصلحة المنتسبين.

مصلحة الجماعة "الوحدة"

لاحظنا من الأمثلة والمعطيات المذكورة حتى الآن أن القائد يعتمد أساساً على مصلحة المجموعة، وأفرادها في تحقيق الأهداف القتالية، ولديه وسائل التأثير عليهم لتحسين مستوى التنفيذ، ولكن إلى أي مدى؟. في ميادين الحياة العادية هناك أمثلة عديدة عن الحاجة الى علاقة مع الغير، إذ انه وتحت وطأة الضغط، يلجأ الناس إلى من يساعدهم في اشباع حاجاتهم الأساسية، مما يعني أن الناس وهم في وضع التوتر الضاغط، كأنهم ينكصون الى الطفولة، يبحثون عن شخص الأب، والأب رمزياً لهؤلاء الناس في الموقف الضاغط كأن يكون حريق، كل شخص يبرز أكثر قوة وحرماً، بل تسلطاً "أوتوقراطية" يشعر الموجودين في موقف الحريق "الضاغط" بالحماية والأمان.

في الحياة العسكرية المسألة لا تختلف من الناحية النفسية، فالمقاتلين أثناء المعارك الضاغطة يحتاجون الى القائد الذي يمثل سلطة الأب الذي لابد ون يكون حازماً قوياً ذو ارادة، أوامره واضحة، وقدرته على تحقيق النجاح ملموسة.

إن شخصية "الأب" الذي يمثله القائد/الآمر يصبح أكثر هيمنة إذا ما أظهر إلى جانب السلطة، والإخلاص، والموثوقية، والمصداقية، اهتماماً جيداً بالمنتسبين.

على هذا يصبح القائد/الآمر في موقعه نفسياً، ليس مجرد الشخص الأعلى رتبة أو الأكثر تأهيلاً لرعاية مصالح الوحدة ومنتسبيها، بل هو بالنسبة إلى غالبية المنتسبين بالإضافة إلى هذا المستوى الرتبي والتأهيل المهني، سلطة نفسية هامة قادرة على تغيير الأمور، وتحقيق النجاح والأمل.

لقد أثر موضوع القيادة منذ الأزل، منذ الفترات الأولى لتشكيل الجيوش، وعبر الجنود في الدراسات والاستفتاءات، عن وجهات نظرهم عن قادتهم، وكان للامان حصة في هذا الشأن، إذ أشار عديد من جنودهم في الحرب العالمية الثانية إلى حاجتهم لمثل هذا النوع من القادة الذين وصفوهم بخاصية اسموها "قاسٍ له قلب"^١.

^١. من أكثر المثالب التي أخذت على القيادة في الجيش العراقي أثناء حروبه بينها الحرب الأخيرة ضد الارهاب على وجه الخصوص هو أن البعض من القادة والأمينين الميدانيين لم يتصفوا بالخصائص المذكورة، حتى أن قسم غير قليل منهم ابان الحرب الأخيرة،

في أثناء الحروب، خاصة الطويلة منها، تحدث فوضى تنجم عن ضغوط التعب، والتقصير، والاختلاف في تحقيق النجاح، ويلاحظ خلالها تعاضل الميل إلى التخلي عن القواعد المهنية، والقيم العسكرية، والأصول والتقاليد التي تضمن قدرًا معنيًا من النظام والتكافل لتحمل الضغوط، ويلاحظ وسط هذا الميل وفقدان السيطرة سلوك غير سوي قوامه:

١. اتجاه البعض من المقاتلين غريزيًا إلى النجاة بأنفسهم.
٢. عدم إعاره الاهتمام للأوامر الصادرة وللمهمة التي أتوا من أجلها ولا حياة الزملاء.

انتهت في داخلهم القسوة الرحيمة، وبات بعضهم يتجنبون معاقبة أحد من منتسبيهم ليتفادوا نقد الآخرين، وربما مقاضاتهم عشائريًا، وهذا مأخذ أخل بالضبط العسكري، وأسقط صفة القيادة القادرة على السيطرة والنجاح، والوقوف موقف القدوة، على هذا تسجل حصول فشل في أكثر من موقف، لا ينبغي أن يحصل فيه الفشل بالحسابات التقليدية للنجاح، وتسجل استغلال للمنتسبين من بعض القادة والأمراء، تسبب في أن تكون استجابات قسم من هؤلاء المنتسبين في المعارك الضاغطة، ترك القائد/الأمير وحيدًا في المعركة، والتخلي عنه في أقصى الظروف، وتسجل أن حمايات للقادة تركوهم يذبحوا في الميدان.

٣. يتمحور جل التفكير على الذات الفردية، وعلى كيفية حمايتها من الخطر.

ومع هذا وحتى وان تحققت الغاية الذاتية بالنجاة من الموقف الخطر، فان مثل هؤلاء الناجين سيدمرون بفعلتهم هذه في نهاية المطاف، احترامهم الخاص لذواتهم، واعتزازهم بأنفسهم، ومن ثم يكبرون في داخلهم الاحساس بالذنب الشعور بالدونية الوضيعة، وعلى هذا يصبحون غير صالحين الى القتال من دون اعادة تأهيل نفسي من جديد، وهو أمر ليس باليسير.

لقد شهد تاريخ الجيش العراقي في تاريخه الحديث وعلى وجه التحديد في حرب الخليج الأولى مع ايران، وما بعدها في حرب الخليج الثانية مع التحالف الدولي حالات من هذا النوع، فقد فيها كثير من المنتسبين السيطرة على أنفسهم، وتركوا مهامهم، حالات بدأت قليلة ثم اتسعت وكبرت عن طريق العدوى النفسية، حتى شملت وحدة بأكملها

أو قيادة برمتها، ومن ثم جيشاً بأكمله، وتتسببت بحصول كارثة عسكرية غير متوقعة، أنعكس حصولها على حال البلاد^١.

^١. في معركة المحمرة عام ١٩٨٢ خلال حرب الخليج الأولى وفي معركة الفاو عام ١٩٨٦ أبان الحرب ذاتها، ترك المقاتلون أماكنهم وانسحبوا بصيغ الفوضى من دون الحصول على أوامر بالانسحاب، رمى البعض منهم نفسه في شط العرب وهو غير قادر على السباحة، ومشى البعض الآخر مئات الكيلومترات دون وعي، فانهارت الدفاعات بسرعة وتغير مجرى الحرب. وفي حرب الخليج الثانية، وعندما صدر أمر الانسحاب من الكويت تحت ضغط القصف الجوي الشديد للحلفاء وبدء الهجوم البري، أحس المقاتلون وطأة الضغط النفسي الآتي من الهجوم على مواضعهم، فنفذوا الانسحاب فردياً وبشكل فوضوي، تبعثرت على أساسه ألوية وفرق وفيالق، وسار آلاف المنتسبين مئات الكيلومترات ليصلوا الى عوائلهم التي أحسوا قربها بالأمان. وفي حرب عام ٢٠٠٣ كان ضغط الخطر من الشدة، ما دفع عموم منتسبي وحدات الجيش العراقي الى ترك أماكنهم ووحداتهم، وارتداء العديد منهم الملابس المدنية والتسرب الى مناطقهم وذويهم، بطريقة أزال الجيش برمته من على الخارطة، واسقطت نظام الحكم الذي قبل زجه بقتال غير متكافئ مع جهة تفوقه تسليحاً وتجهيزاً وتقنية مئات المرات.

التحفيز

إن القيادة الحديثة المليئة بالواجبات المعقدة، والتي يزداد فيها عدد الجنود حسنوا الثقافة، تستلزم ممارسة القيادة التعاونية، يعطى فيها دور لهيئات الركن، وللجهات المعلوماتية، يمارس الجميع في ظلها المسؤوليات المتصلة بها. ورغم كل شيء فإن أساليب القيادة هذه، تمثل وسيلة معترف بها في تحقيق "التحفيز" عن طريق تحميل المسؤولية أي ايكالها للقادة والأميرين نزولا الى المنفذين، والمسؤولية هنا بمثابة "حافز" يقودنا إلى السؤال التالي الذي يتعين علينا الإجابة عليه بوضوح وهو:

كيف يمكن أستثارة "تحفيز" الطاقة الإحتياطية لدى القادة والأميرين المطلوبة لمساعدة وحداتهم، أي منتسبيهم على إنجاز واجباتهم في الوقت الذي يخضعون فيه الى نفس الضغوط الجسدية والنفسية، التي يخضع لها المنتسبون؟.

إن أجزاء من هذا السؤال تمت الإجابة عليها في سياق ما تقدم، فقبول مهمة القيادة ومسؤولياتها المتشعبة، هو بمثابة "حافز" يمكن أن يطلق الطاقة الاحتياطية، ومع هذا هناك نماذج قادة، هم وحدهم

قادرين أن يخرجون الطاقة الاحتياطية، عندما يحفزون بتحميلهم المسؤولية، وهم وحدهم الذي يفترض أن تعهد لهم المهام القيادية الصعبة، على هذا يكون صحيح القول أنه بالرغم من التحفيز بايكال المسؤولية والانتقاء الدقيق للأفراد، فالقادة يميلون إلى أن "يحترقوا" بسرعة أكبر من مرؤوسيهـم، وبسببها قيل (كونك قائداً أصعب عليك من أن تكون مقاداً).

لا يمكن أن يكون القادة ناجحون إذا ما تجاهلوا مصالح الوحدة والمقاتل الفرد، وعجزوا عن لعب دور "الأب" وكانوا متراخين جداً في تطبيق القوانين المدونة، وغير المدونة للوحدة، أو إذا ما أصيبوا بأعياء واحترقوا.

وفي هذه الحالة ليس هناك سوى حل واحد ينقذ القائد ومرؤوسيهـ، هو إعفاءه من مسؤوليته "واجبه" كقائد. ولنا في التاريخ أمثلة كثيرة على قادة ابتعدوا كثيراً عن الواجب، والبعض منهم كان على كفاءة عالية في يوم من الأيام، لكنهم لم يتمكنوا من العمل في اليوم التالي، وكثير من هؤلاء القادة المعفيين، أعيد استخدامهم بنجاح بعد فترة من الراحة، اذ أنه الاعفاء في بعض الأحيان ليس انتقاصاً أو إخلالاً بالشرف العسكري،

خاصة اذا ما تأسس الاعفاء على حقيقة الاصابة بالاعياء، وهذا حق من حقوق المسؤولية لكل ضابط قائد.

لقد أوضح لنا هذا السياق ان منصب القائد أقل أهمية من تلاحم الوحدة أو المجموعة مع بعضها البعض كعائلة واحدة، ومع هذا يبقى دوره القيادي على قدر من الأهمية، ووضح لنا أيضا لا يمكن للقائد أن يكون ناجحاً ما لم يكن متفقاً مع أهداف الوحدة، ومصالح المنتسب الواحد فيها، وكثيراً ما يصبح بمثابة "الأب" وله الصلاحية لتغيير مجرى الأحداث بتصميمه على تنفيذ الأوامر والوصايا، وعليه أن يكون صارماً لأنه ملزم بفرض القوانين النافذة حتى لو تم النظر اليه على أنه "قاسٍ وبلا رحمة".

فإذا كان القائد/الأمير كذلك قاسٍ وفعل كل ما في وسعه لأن يكون عادلاً، ساهرا على مصالح جنوده، غير مستغلا لهم، فسوف يقومون من جانبهم باقتحام الصعاب وتحمل كل الضغوط من أجله.

الفصل السابع

اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية

الاضطراب الصدمي

يواجه العسكري في الحرب وأثناء المعارك، بكافة صفحات القتال مخاطر تشكل ضغوطاً مستمرة، ترهق جميعها جهازه العصبي، وتترك فيما بعد آثاراً سلبية على النفس والمعنويات والأداء، صنفه العلماء المختصون باضطراب نفسي سمي "اضطراب ما بعد الضغوط الصدمية"، مختصره العلمي -PTSD-.

إضطراب قال عنه العلماء والمختصين في الصحة النفسية أنه الاضطراب الأكثر انتشاراً من بين الاضطرابات النفسية المسجلة في المجتمعات البشرية التي تنتشر فيها الحروب (١٥).

التعريف

لقد عرف البعض هذا الاضطراب على أنه أي حادثة تكون خارج استجابة مدى الخبرة المعتادة للفرد، تسبب له الكرب النفسي (١٦)، وعادة ما تكون استجابة المعني في هذا الموقف الضاغطة متسمة بالخوف الشديد، والرعب أحياناً، وكذلك الشعور بالعجز عن القيام بالاستجابة اللازمة.

وعرفه آخرون تعريفاً لم يكن بعيداً عن مفهوم هذا التعريف، وذلك
بالقول:

انه اضطراب ينجم عن تعرض الشخص الى حدث مؤلم جداً "صدمة"
يتخطى حدود تجربته الانسانية المألوفة مثل حوادث الحرب، والعنف
والتعذيب، والاعتداء، والكوارث، تظهر على الذي يعيشها أعراض جسدية
ونفسية مثل "التجنب، التبلد، الأفكار التسلطية، اضطراب النوم، التعرق
الشديد، الاجفال، الخوف، الاحتراز، وضعف الذاكرة، وقلة التركيز(١٧).

الاصابات النفسية الصدمية

ان الدراسات التي تناولت الضغوط الآتية من الصدمات تميز بين نوعين من الاصابات النفسية الناجمة عنها:

١. اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية (Post traumatic disorder) أي (P T S D) التي يستمر أثر أعراضها الى أمد طويل بعد التعرض للاصابة، أي أن شفاؤها بطيء.

٢. اضطراب الضغط الحاد (Acute Stress Disorder) الذي يتماثل فيه المصاب الى الشفاء سريعاً، بعد التعرض الى الصدمة النفسية. وهنا يأتي دور الآمرين المباشرين في التعامل مع الضغوط، اذ وعلى ضوء هذا الاختلاف يتبين أن التدخل السريع والمباشر، ممكن لتخليص قسم من المقاتلين بعض الآثار النفسية للصدمة التي وفي حال تركها، وتراكم ما بعدها قد تحدث الاضطراب ما بعد الضغوط الصدمية الذي يمكن أن يلازم البعض الى فترة زمنية أطول، قد تمتد معه الى ما بعد خدمته العسكرية.

إن حصول الضغوط الصدمية أثناء المعركة يفسر لنا تكرار بعض المقاتلين، سلوك الهروب أو التسرب من وحداتهم مع كل مواجهة قتالية تحصل، على الرغم من ادراكهم قسوة العقوبة المحتملة، إذ وفي الحرب العراقية الإيرانية على سبيل التأكيد واثّر الانتكاسة النفسية القتالية عام ١٩٨٢، شكلت القيادة العامة للقوات المسلحة مفارز إعدام ميداني من الاستخبارات العسكرية، والانضباط العسكري، والتوجيه السياسي، والتنظيم الحزبي، خولتها صلاحيات تنفيذ حكم الاعدام ميدانيا بالجنود المنسحبين بدون أمر، والمتسربين من المعارك، وقامت بالتنفيذ فعلاً، ومع هذا بقي الهروب والتسرب مشكلة لم تنتهي حتى وصلت الى مستوى جماعي يفوق مستوى الوحدة والتشكيل، وفي حالات الضغوط الشديدة والكبيرة طالت عموم الجيش كما حدث عام ١٩٩١ ومن بعده ٢٠٠٣. (١٨).

إن الاكتشافات الأولى لهذا الاضطراب النفسي قد تمت في الحرب الفيتنامية الامريكية التي أنهت عام ١٩٧٥، حيث تبين للأخصائيين النفسيين الذين تابعوا موضوعه بعد انتهائها، أن نصف مليون مقاتل أمريكي كانوا قد أشتركوا فيها، باتوا يعانون من هذا الاضطراب، حتى بعد خمسة عشر عاماً على انتهائها.

وتبين لهم أن هناك أعراض محددة لهذا الاضطراب من أكثرها الكوابيس والأحلام المزعجة، والحزن حد الاكتئاب، وسرعة الغضب، وكثير الهيجان، والاستجابة العدائية لفظاً أو تديناً، ثم العزوف عن القيام بالنشاطات الممتعة، كذلك الكسل وفتور الهمة والتبلد.

الأعراض

ان الدراسات التي تناولت آثار الحروب في يوغسلافيا السابقة أشرت أن أكثر من (٢٥%) من السكان الذين عاصروا الحرب العرقية يعانون آثار هذا الاضطراب، وبينت دراسات أخرى أن (٦٥%) من البوسنيين الذي لجأوا الى أمريكا اثر الحرب الأهلية عانوا من آثار هذا الاضطراب، وهناك دراسات عديدة عن الحرب في فيتنام والحروب العربية الاسرائيلية، وجدت جميعها أن أعراض هذا الاضطراب تتمحور حول الآتي:

١. معاودة خبرة الحدث الصادم.

أي يعاود المقاتل المصاب، العيش نفس الخبرة التي عاشها في الحادث الصدمي، أو يتذكر ذلك الحدث الذي خبره، بوحدة أو أكثر من الطرق الآتية:

أ. كوابيس وأحلام مزعجة ذات صلة بالحادث الصدمي.

ب. أفكار تقتحم الذاكرة قسرياً بشكل متكرر عن الحادث، تثير التوتر والاكتئاب.

- ج. الشعور وكأن الحدث الصدمي سيحدث ثانية، مع توارد صور عقلية أو خيالات تسلطية في الذاكرة.
- د. الانزعاج الانفعالي الشديد عند المرور بتجربة مشابهة، أو قريبة من التي حصلت، أو عند رؤية المكان نفسه أو ما يشبهه.

٢. التجنب.

الابتعاد عن المكان والظرف المشابه لذلك الذي أحدث الصدمة، فالآمر الذي أقرن اسمه بالفشل في معركة أحدثت صدمة على سبيل المثال، سيكون لدى المنتسبين المصابين ميل للابتعاد عنه أو التشاؤم بوجوده، وإذا ما حدثت الصدمة في أرض مغمورة بالمياه أو بين مجموعة أبنية، فإن المصاب يتجنب ما يشبهها في أرض المعركة، بجملة أعراض بينها:

- أ. تجنب الأشخاص، والأماكن، والمواقف المثلثة، التي تستدعي الذكريات المكبوتة عن الحادث.
- ب. محاولة تنحية "طرد" الأفكار والانفعالات التي تذكّر بالحادث، وتجنب تناولها في الحديث مع الغير.
- ج. اللجوء في الحالات الشديدة الى تناول بعض أنواع العقاقير، أو الكحول والمخدرات، في سعي سلبي للهروب من التذكر المؤلم.
- د. هبوط في مستوى الهمة، والنشاط التقليدي بينه القتالي.
- هـ. أقول أو فتور في المشاعر العاطفية.
- و. الميل الى العزلة.

٣. فرط الاستثارة.

ظهور بعض أنواع الاستثارة لدى المصاب، لم تكن موجودة من قبل
مثل:

أ. اضطراب وصعوبة النوم، وتكرار الاستيقاظ أثناءه، مع صعوبة
العودة الى النوم مرة أخرى.

ب. التهيج والغضب السريع، يصاحبه سلوك عدواني لفظياً أو بدنياً.
ج. توتر وشد، ومصاعب في الاسترخاء.

د. ضعف التركيز أو صعوبته في بعض الأنشطة التي تمارس أو تتابع.
هـ. الجفلة "الفزة" عند سماع صوت عال، أو مفاجئ، أو لمسة غير
متوقعة.

٤. أعراض مصاحبة.

بالإضافة الى الأعراض المذكورة فإن الذين يتعرضون الى اصابات ما
بعد الضغوط الصدمية، يمكن أن تظهر عليهم بعض أعراض القلق
والاكتئاب، وأحيانا الشعور الشديد بالذنب، وهم قد يواجهون مشاكل
عائلية كنوع من الأعراض المصاحبة، وأحيانا قد تنتابهم أفكار انتحارية
وميوول عدوانية(١٩).

الاصابة

في مجال الاصابة ودوافعها والاسباب، كانت هناك آراء متعددة تبعا للمدارس النفسية والمناحي الفكرية للمتخصصين في علم النفس والطب النفسي، إلا أنهم قد اتفقوا على وجه التقريب على جملة أمور بينها:

١. ان أعراض الضغوط الصدمية، قد تظهر بعد الحدث الصدمي بأشهر أو حتى سنوات.

٢. ان الحادث الصدمي، قد يُشعر الفرد بالارتباك، وبما يسبب الفزع والاعياء.

٣. إن المشاعر المصاحبة عادة ما تكون مؤلمة، لذا يلجأ العقل الى كبتها، غير ان هذا الكبت أو الانكار لا ينهي المشكلة بسبب عدم قدرة الانسان على جعل المعلومات ذات الصلة بالحادث تتسق، أو تتكامل مع المعلومات الأخرى "الخبرات" المخزنة في خلايا ذاكرته.

وجهات نظر المدارس النفسية

إن آراء المدارس فيما يتعلق باضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية جاءت مختلفة كما هو حال اختلافهم الطبيعي لما يتعلق بعموم الاضطرابات، وفي هذا المجال يصبح من المفيد ذكر وجهات النظر الأكثر عملية:

١. فعلماء النفس السلوكيون يؤكدون من جانبهم على التشريط أساسا في اكتساب المقاتل المصاب، استجابة الخوف لمنبه طبيعي، فالجندي الذي يتعرض الى هجوم انتحاري على مواضعه بسيارة مفخخة وينجو من الحادث حسب تصورهم، يمكن أن يظهر عليه خوفاً شديدا اذا ما شاهد فيما بعد سيارة من نفس النوع تتقدم من مكانه، وقد يجري تعميم هذا الخوف على أنواع أخرى من السيارات، ولمواقف أخرى مشابهة من القتال.

٢. أما أصحاب علم النفس المعرفي فانهم يرون الاصابة بهذا النوع من الاضطراب تأتي عن الأحداث الصدمية التي تهدد افتراضاتنا العادية بخصوص الأمن، فالجندي الذي تعرض الى هجوم ارهابي في المثل السابق من وجهة نظرهم، قد يشعر بعدم الامان في حال وجود سيارات أو أشخاص ومواقف مشابهة، لأن الحدود الفاصلة بين الأمان، وبين الخطر أصبحت عنده غير واضحة، بالقدر الذي

يتسبب في تكوين بنية حادة للخوف في الذاكرة البعيدة. وان مثل هؤلاء الأشخاص الذين تتكون لديهم مثل هذه البنية من الخوف سوف يهرون بخبرة نقص القدرة على التنبؤ وضعف السيطرة على حياتهم، انهم يدركون الحادث الصادم بطريقة تشكل لهم تهديداً، ينجم عنه اضطراب في السلوك.

وخاتمة القول ان جميع المدارس النفسية تؤكد على استمرار الأعراض، وتؤكد على أن المصابين الذين يحصلون على اسناد اجتماعي ستكون الأعراض التي يواجهونها أقل من أقرانهم الذين لا يحصلون عليها، وهنا يأتي دور الأمرين، والتوجيه المعنوي، والطبابة النفسية، وحتى المجتمع في تقديم هذا الاسناد الضروري (٢٠).

عوامل الإصابة

أما احتمالات الإصابة من عدمها، فيرجعها جل المختصون الى عوامل تتمثل في الآتي:

١. التكوين الوراثي للانسان المقاتل.
٢. خصائصه النفسية.
٣. قسوة الظروف البيئية، أي المحيط الذي هو فيه.

كما يرجع أولئك المختصون أسباب الإصابة الى التعرض لصدمة بيئية شديدة لا يمكن مقاومتها.

لكنهم يشيرون الى أن الصدمة التي تؤدي الى الإصابة بهذا النوع من الاضطراب، يشترط أن يكون فيها الفرد المقاتل المعني: معرضا الى الخطر.

عاجزاً عن القيام بفعل للتعامل مع موضوع الخطر. على هذا تكون الصدمة متضمنة الرعب بدرجة كبيرة، تفوق شدته قدرة المعنيين على تحملها أو مواجهتها.

هناك في الحروب، وخلال المعارك الدائرة ظروف وحوادث عديدة، تفضي الى إحداث الإصابة باضطراب ما بعد الضغوط الصدمية، أهمها:

١. المفاجأة: أي المباغتة، وعدم توقع الفعل الذي يحدث في الموقف مثل انفجار قريب، هجوم من اتجاه غير محسوب، أعداد للعدو أكثر بكثير من المتوقع، انهيار مفاجئ في الدفاعات القائمة... الخ.
٢. وحشية الفعل: مثل القتل والتمثيل بالجثث، وما يرافقه من رعب شديد، وهجمات قريبة للانتحاريين.

٣. الاستمرارية: استمرارية التعرض الى الخطر والى الفعل المثير للتوتر، ولفترة زمنية تعد طويلة نسبياً، خاصة اذا ما صاحب وجود الخطر خسائر من الزملاء القريين، واذا ما كانت اصاباتهم بطريقة وحشية.

٤. العزلة: البقاء في حال العزلة، والحرمان والشد لفترة زمنية طويلة. وعلى وجه العموم يشير علماء النفس العسكري أن المقاتلين الذين يخوضون معارك شديدة وخطرة، ترتفع بينهم نسب الاصابة باضطراب ما بعد الضغوط الصدمية ثلاثة أضعاف أقرانهم الذين لم يخوضوا مثل هكذا معارك (٢١).

احتمالات الاصابة

مما ورد أعلاه يتبين أن وجود صدمة أمر ضروري لحصول الاصابة بهذا الاضطراب، كما ان وجودها ليس بالضرورة أن يسبب حصول الاصابة، وليس بالضرورة أيضا أن تصيب الصدمة جميع المقاتلين في الموقف الصادم، إذ أن لكل مقاتل استجابة محددة للفعل، وهي التي تضي على الموقف الصادم نوع الاستجابة، فيما اذا كانت سليمة من عدمها.

على هذا يفترض علماء النفس التفريق بين عنصريين نفسيين أساسيين في الصدمة التي يمكن أن تفضي الى الاضطراب، هما:

١. تفكك الأنا الذاتية: أي الشعور في أثناء الموقف الصادم بأن الفرد المقاتل، وكأنه ينفصل عن ذاتيته، تنتهك انسانيته هو، وخلال الموقف "الشديد" الصادم لا يشعر ان له قيمة، هو مجرد شيء غير حصين اتجاه التأثيرات المحيطة به، معرض أن ينتهي امام قوة تفوق قدرته. إنه فقدان لهوية الأنا، وتهديد لتماسك الذات الكلي.

٢. الانغلاق الذاتي: يشعر الفرد وكأن قدرته قد استلبت فجأة، وقد أصبح غير قادر على التحكم فيما يجري من حوله، وعاجز عن

السيطرة على ذاته. انه أنقطاع لسيل الخبرات العقلية التراكمية التي يمكنها التعامل مع هذا الواقع، فيجد نفسه فجأة بلا معرفة عن الذي يجري، وعن الذي يفترض أن يكون.

عوامل المخاطرة

ان العنصرين المذكورين اساسيين لحصول الاضطراب، ومع هذا وجد المختصون عوامل مساعدة تتعلق بخصائص الفرد، بعد أن تأكدوا أن حصول موقف صادم لجماعة مقاتلة "حزيرة، فصيل، سرية، فأكثر" لا يعني ومهما كانت شدته وخطورته أن جميعهم سيصابون بهذا الاضطراب، وان المرشح للاصابة من بينهم، هو من يتصف بخصائص أسموها عوامل المخاطرة وهي:

١. الوهن النفسي. عدم الصلابة في التركيبة النفسية للفرد.
٢. الشخصية المضادة للمجتمع، الاعتمادية الحدية في التصرف وابداء الرأي "شخصية أقرب ما تكون الى العصابية".
٣. كما ان وجود أمراض نفسية في العائلة يعد عاملا مساعدا على حصول الاصابة.

٤. سوء المعاملة أثناء بداية الحياة والتعرض للأذى الجسدي، والتدني المعرفي، واضطراب السلوك أثناء الطفولة، وفقدان الثقة في النفس أثناء المراهقة، ووجود أمراض عضوية مثيرة للقلق، جميعها عوامل يمكن أن تساعد على حصول الإصابة.

٥. كما ان التعرض المتكرر لمواقف صدمية يمكن أن يكون من بين أهم العوامل المساعدة على حصولها، على أساس أن كل موقف صادم يحتاج الى كم من الطاقة النفسية للتعامل معه، وبما أن كم الطاقة الموجودة لا يعوض، فاستنزافه بتكرار المواقف سيقلل من كم الخزين الموجود للطاقة، حتى يأتي الموقف الذي لم يجد فيه المعني كما يكفي للتعامل معه، فيصبح عرضة للإصابة بهذا النوع من الاضطراب أو باضطرابات نفسية أخرى.

علاج الاضطرابات الصدمية

إن اساس العلاج لهذا الاضطراب الصدمي أو هدفه يعتمد على جوانب عدة أهمها:

١. الحيلولة دون حصول الصدمة جهد الامكان أو التخفيف من وقع حصولها، من خلال التدريب المسبق، وزيادة قوة الاحتمال، والممارسة الفعلية على المواقف الشبيهة في المعركة.
٢. تزويد المقاتلين بالمعرفة اللازمة والمعلومات الصحيحة عن الموقف القتالي والاحتمالات المتوقعة وبما لا يخل بالجوانب الأمنية.
٣. الاقتراب من المقاتلين نفسياً، واشعارهم بالتواجد معهم في الموقف الضاغط، والتصرف بما يوحي بالشجاعة والقدرة العالية على التحمل.
٤. التخفيف من كم المعاناة النفسية بعد مواقف الصدمة التي يتعرض لها المقاتل في المعركة التي تفوق قدرته على التحمل، من

خلال اللقاء المباشر، وفسح المجال عند توفر الفرص الى تنفيس الانفعالات السلبية من نفوس المقاتلين باللقاء والتحاور والطمأنة.

٥. إعادة التأهيل النفسي اللازم بعد المعركة الصادمة، تأهيل يفترض أن يقوم به الأمرين أنفسهم والتوجيه المعنوي في الوحدات، يحاولون في مجاله تصريف الانفعالات، واعادة الوعي الى مجرياته الطبيعية، واقناع المقاتلين بتقبل الواقع واعطاء الأمل للمستقبل، يكفي للاستمرار في تحمل المسؤولية ومواصلة القتال.

٦. في حالة الاصابات الشديدة، يتدخل الطب النفسي للتغلب على التوتر ومعالجة المخاوف العالقة والقلق، وذلك بتقديم جلسات علاجية سريعة، جماعية في الغالب، وقد يستلزم في بعض الحالات الشديدة إعطاء أدوية مهدئة للسيطرة على الاستجابات الانفعالية الحادة.

٧. يتحمل الطب النفسي العسكرية مسؤولية المتابعة العلاجية، اي متابعة الحالة النفسية لبعض المصابين بأعراض الاضطراب التي قد تظهر بعد فترة من المعركة والتعرض خلالها للصدمة.

الخاتمة

إن موضوع الضغوط النفسية في الحرب وأثناء معاركه الدائرة، موضوع شائك، أخذ العلماء بعض وقائعه من الحياة العامة التي يعيشها بعض الناس تعذيباً وتنكيلاً، ومخاطر تهديد بالموت والاصابة والحجز والترويع، ووجدوا أنها تشكل ضغوط على النفس الانسانية، تدفع بعض من أصحابها الى الاصابة باعراض اضطرابات نفسية متعددة.

ان مفهوم الضغوط النفسية، كتهديد للذات الانسانية مفهوم واحد سواء في الحياة المدنية أو العسكرية، والا ختلاف الوحيد بين الحياتين أو البيئتين هو شكل الضغوط وشدتها، فالتهديد بالاصابة والموت هو السائد في الحروب، وهي أكثر التهديدات التي تشعر المقاتلين بالخطر الذي يضعهم تحت وطأة الضغوط والاجهاد.

إن الضغوط في الحرب، تحصيل حاصل، لا بد من وجودها لأن الحرب بطبيعتها مسألة خطرة، الأمر الذي يدفع الجيوش التحسب لها والاستعداد المسبق للتعامل معها، سواء عن طريق التدريب الفني والبدني أو عن طريق التحصين النفسي، والترويع الانفعالي.

لكننا في العراق وفي ظروف اعادة بناء الجيش والقوات المسلحة، وضيق الوقت الخاص بالاعداد والتأهيل، وسرعة أقحام المنتسبين في القتال، جعل التفكير في التعامل مع الضغوط، والاصابات النفسية

الناجمة عنها عن طريق الأجهزة المعنية بالمعنويات، والتحصين النفسي، والطبابة النفسية العسكرية، مسألة صعبة في الوقت الحاضر على أقل تقدير، الأمر الذي أبقى الحال معلقاً بالآمرين المؤهلين وحدهم في الوقت الراهن للحيلولة دون حدوث التأثيرات الناجمة عن الضغوط، وتخفيف حصولها.

فيمثل وجود الأمر، سلطة الأب الرحيم المعطاء الحازم القادر على الحماية والرعاية، وهو من موقعه القريب من المنتسبين يكون قادراً على الاتصال بهم، السماح بالترويح عنهم، وتصريف انفعالاتهم، والأهم من هذا قيادتهم بنجاح، واقناعهم على الدوام أنه قدوة لهم مثل كل الآباء الجيدين. وابقاءه أيضاً بالمعرفة النفسية المناسبة، وفعاليات التوجيه المعنوي لايصال هذه المعرفة الى عموم المقاتلين عن طريق المحاضرات التي تجرى في المواقع القريبة من ساحة المعركة، أو في المقرات، وكذلك عن طريق الاصدارات النفسية الدورية التي تتعامل مع موضوع الضغوط والاضطرابات التي تزيد من معرفة الضباط والآخرين، وتسهل لهم التعامل مع منتسبيهم، تعاملًا يزيد من تحصيلهم ازاء الضغوط والاصابات النفسية اثناء الحروب والمعارك التي تدور في ساحتها.

المصادر

١. العبيدي، سعد (٢٠١٣) سايكولوجية المخالفة، دار الجواهري، بغداد.
٢. مكتب الانماء الاجتماعي (٢)، سلسلة تشخيص الاضطرابات النفسية، اضطرابات الضغوط التالية للصدمة، ١٢. العلاج، الطبعة الأولى، الديوان الأميري، الكويت.
٣. مديرية البحوث والخدمات النفسية (١٩٨٨) العمل النفسي الميداني، وزارة الدفاع، بغداد.
٤. مكماهون، جلادينا، التكيف مع صدمات الحياة، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢.
٥. الاجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب ، كراس، وزارة الدفاع، أمانة السر، ٢٠١٣).
٦. محمد عاطف السيد(ب،ت) فصول في علم النفس العسكري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

٧. مديرية البحوث والخدمات النفسية (١٩٨٩) المقاتل في مواجهة المجهول، وزارة الدفاع، بغداد.
٨. مارتن، فانكريفلد (١٩٨٨) عناصر القوة القتالية، ترجمة يزيد صائغ، المؤسسة العربية للدراسات والنش، بيروت.
٩. جورارد سدي، وتيد لندزمن (١٩٨٨) الشخصية السليمة، ترجمة الكربولي والحمداني، جامعة بغداد، مطبعة التعليم العالي.
١٠. حلقة بحث في مادة الحرب النفسية/ جامعة دمشق- كلية التربية- قسم علم النفس- دبلوم دراسات عليا / قسم علم النفس العسكري/ بإشراف الدكتور : محمد عماد سعدا. (٢٠٠٣/٢٠٠٢).
١١. سكر، ب ف (ب ت) تكنولوجيا السلوك الانساني، ترجمة عبد القادر يوسف، عالم المعرفة، العدد ٣٢، الكويت.
١٢. العبيدي، سعد (٢٠١٠) المعنويات في الميدان، مطبعة الرشيد، بغداد.
١٣. الضغوط النفسية في الحرب، سلسلة بحوث عسكرية، ١٩٨٦، الرقم ٦٣، مديرية التطوير القتالي، بغداد.

١٤. الانفعال النفسي، العدد ٢، العمل النفسي الميداني، مديرية البحوث والخدمات النفسية، ١٩٨٨. وزارة الدفاع، بغداد.
١٥. صالح، قاسم حسين (٢٠٠٦) اضطراب ما بعد الضغوط النفسية، دراسات نفسية، موقع المستشار.
- i. (DSM-III) (Weiten, 1998, P. 534 ; Eysenck, 2000 , P. 691)
١٦. يعقوب، غسان (١٩٩٩) سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي (اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة)، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت.
١٧. العبيدي، سعد (٢٠١٤) وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر، دمشق.
١٨. النابلسي، محمد أحمد (١٩٨٥) الأمراض النفسية وعلاجها، دراسة في مجتمع الحرب اللبنانية، المنشورات الجامعية، لبنان.
١٩. الحجار، محمد حمدي (١٩٩٨)، علم النفس المرضي، دار النهضة العربية، بيروت.
٢٠. النابلسي ، محمد أحمد (١٩٩١)، الصدمة النفسية، علم نفس الحروب والكوارث، دار النهضة العربية، بيروت.

حياة المؤلف

- ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام ١٩٤٦.
- تخرج من الكلية العسكرية العراقية، الدورة (٤٣) عام ١٩٦٦. واحيل على التقاعد عام ٢٠١٤.
- حصل على البكالوريوس آداب من الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية عام ١٩٧٦.
- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس عام ١٩٧٩.
- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية عام ١٩٨٧.
- نال شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام ١٩٩١.
- خدم كضابط في الجيش العراقي لخمسين عاما، تدرج من آمر فصيل وسرية ومساعد آمر فوج، ثم مدير شعبة الإستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية، ومدير عام التخطيط

والمتابعة في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق
عسكري في باريس، ومستشار في مكتب القائد العام.
- عمل مدرسا لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون
الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا
منذ العام ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠، وباحثا في علم النفس والسياسة،
وكاتبا لعمود في الصحافة العراقية، وخبيرا في العمليات النفسية.
. رئيس مجلس ادارة مركز الشرق للبحوث والاستشارات.
. عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

اصدارات للمؤلف

١. مقدمة في علم النفس العسكري (مع مؤلفين آخرين) مديرية التدريب العسكري، بغداد ١٩٨٣.
٢. المعنويات بعد الحرب، مديرية التوجيه المعنوي، ١٩٨٩.
٣. المخالفة في الحياة العسكرية، عواملها النفسية وأسس التعامل معها، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد ١٩٩٠.
٤. نوايا وحروب. دار العارف، بيروت ٢٠٠٣.
٥. أزمة المجتمع العراقي. دار الكنوز، بيروت ٢٠٠٣.
٦. دوامات المحنة. الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٧.
٧. المعنويات في الميدان، نظرة في التقويم والقياس. مطبعة الرشيد، بغداد ٢٠١١.
٨. حصاد العاصفة، الجزء الاول، (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١١..

٩. جراح الغابة، "رواية" فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢.
١٠. وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٣.
١١. سيكولوجية المخالفة، دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.
١٢. تلك هي "رواية" دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.
١٣. الاجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب، وزارة الدفاع، ٢٠١٣.
١٤. حصاد العاصفة، الجزء الثاني (التداعيات الادارية والامنية لعاصفة التغيير في العراق)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٤.

جدول المحتويات

المدخل.....	٣
الفصل الأول.....	٧
الضغوط النفسية.....	٧
ماهية الضغوط النفسية.....	٨
الافرازات الهرمونية أثناء التعرض الى الضغوط.....	١٣
الفصل الثاني.....	١٧
ضغوط الاجهاد القتالي.....	١٧
معنى الاجهاد.....	١٩
أنواع الاجهاد.....	٢١
علاقة الضغوط بالاجهاد.....	٢٢
تقدير الخطر.....	٢٥
دور الأمرين.....	٢٨
قدرة الاحتمال.....	٣٠
تذبذب الأداء القتالي.....	٣٤
النوم ومسألة الاعياء.....	٣٧
التغذية وعوامل الاجهاد.....	٤٢

الأمل.....	٤٦
الفصل الثالث.....	٥١
الضغوط النفسية على المقاتل.....	٥١
التعرض الى الضغوط.....	٥٣
القلق.....	٥٦
تأثيرات القلق.....	٦٠
الفصل الرابع.....	٦٥
الضغوط التي يتعرض لها القادة والأمين.....	٦٥
القرار.....	٦٧
الخصائص.....	٧٥
الفصل الخامس.....	٨١
مواجهة الضغوط النفسية للمعركة.....	٨١
غيمة الضغوط.....	٨٣
التعامل مع الضغوط.....	٨٦
الفصل السادس.....	١٠٥
دور القادة والأمين في التعامل مع الضغوط.....	١٠٥
حقائق انسانية.....	١٠٧

١١٠.....	القدرات والخصائص القيادية
١١٥.....	مصلحة الجماعة "الوحدة"
١٢٠.....	التحفيز
١٢٣.....	الفصل السابع
١٢٣.....	اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية
١٢٥.....	الاضطراب الصدمي
١٢٧.....	الاصابات النفسية الصدمية
١٣٠.....	الأعراض
١٣٤.....	الاصابة
١٣٩.....	احتمالات الاصابة
١٤٢.....	علاج الاضطرابات الصدمية
١٤٥.....	الخاتمة
١٤٩.....	المصادر
١٥٣.....	حياة المؤلف
١٥٥.....	اصدارات للمؤلف